أولادنا
٤٦

الطفلة المستحيلة

تأليف : د. أميمة خفاجى

دار المعارف

obeikandl.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

خفاجي، اميمة.
الطفلة المستحيلة/ اميمة خفاجي. - القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٧
١٧٦ص، ٢٠ سم. (أولادنا، ٤٦)
تدمك ٤ ٥١٥٩ ٠٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - قصص الأطفال.
٢ - القصص العربية
١- العنوان

ديوى ٨١٣,٠٢

رقم الإيداع ٢٤٦٠٥ / ٢٠٠٧ ٧/ ٢٠٠٦/٥٧

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

obeikandl.com

رسالة..!

الأسرُ أو الإعدامُ..

كلاهمَا يتساويَان..

لكنْ..! كيفَ يكونُ هذا هُوَ مَصيرهَا وحدهَا، دون سائرِ فتيـاتِ العالـمِ؟ بلْ كيفَ يحدثُ لهَـا كلُّ ذلكَ!! وأدهم مازالَ حيًّا عَلى قيدِ الحياةِ..!!

كانَ لزامًـا عليهِ، بلْ حقًا وجبَ عليْـهِ إنقاذهَا. وَفك أسرهَا، وإطلاَق سراحهَا من تلكَ الزنزانةِ التِى تحيَا فيهَا حياةَ الفئرانِ والحشراتِ.

لكنْ..! كيفَ سيتسنَّى لهُ تَحْقِيق ذلكَ؟ وهيَ بكلِّ هذا الحجـم والوزنِ الهائـلِ الضَّخـمِ!! رغبةٌ مدمرةٌ.. تعتريهِ وهوَ يبذلُ قُصَارى جهْدِه لتهْريبهَا مِنَ المسْتَشْفَى.

خرجَ أدْهم.. تَحمله أشجَان عَلى كتفهَا وَكأنه طفلٌ صغيرٌ.. ورغمَ ضآلة حجْمه، وصِغره، مُقَارنةً بهَا، إلَّا إنَّهُ كانَ كبيرًا.. شَـامخا وهو يحقـقُ خُطته فِى تهريبهَا.. فظلَّ يُرْشـدهَا إلى الطريقِ الَّذِى حَدَّده لتهريبها بكل دقةٍ وبمنتهَى الإتقان.

وسارًا سَويًّا.

كانَ الوقــتَ مُتأخراً والظلامُ يمــلأُ الأرجَاء.. وفى هذَا الوقــتِ مــنَ اللَّيــل لاَ ترى المَارة عــبرَ الشــوارِع والطُّرقِ إلَّا نادرًا.. ومنْ هؤلاءِ القلَّةِ النَّادرة كانَ لا يراهَا أو يلمحهَا أحدُ المَارة إلا وَتَســمَّرَتْ قدماهُ، وشلّت حَركتُهُ مِنْ هولِ مَا يشــعرُ به، لمجَّرد النظرِ إليهَا، وبسرعةِ البرقِ تختفِى عَنْ نَاظِريْه.

فيخالهَا المَارَّةُ شــبحًا منْ أشــباحِ الظلام، أوْ ماجسًا مِنْ خيالاتِ الفكرِ التِى تُطَالعهُمْ بهَا وســائلُ الإعلام ليلاً ونهارًا عنِ البنتِ المتوحشــةِ، والأمراضِ التى تَجْتَاحُهَا، فراحُــوا يتخيلونها قبالتهُم فِى كلِّ وقْــتٍ.. وَكلِّ حينٍ، منْ كثرةِ الخوفِ والرعــبِ والفزعِ الذِى أصَابهم من جرّاء الحديثِ عنهَا.

فراحتْ صورُها المفزعةُ تتراءَى لَهم فِى كلِّ حينٍ.. فى النــوم، واليقظةِ، بلْ وفِى أثناءِ ســيْرِهِمْ فِى وَضح النهارِ أصبحُوا يرونهَا أمَامهم.

وظل أدهم يصفُ لهَا كيفَ سيتحققُ أملُه أخيرًا:

– سَـأُؤَمِّنُ لنَا مكانًا لَنْ يعثرَ عليْهِ أحدٌ، لنعيشَ سـويًا بعيدًا عنِ الناسِ والخوْف.

بسُخريةٍ ويأسٍ تَرُدُّ: بعيدًا عَنِ الناسِ..!

لَـمْ يُعِرْ أدهَم سـخَريتهَا تلكَ أدنى انتبَاه، بلْ سـألهَا ليخرجهَـا مِنْ ظُلماتِ اليأسِ التِى كانتْ تملؤهَا، عنْ تلكَ الأوراقِ التِى سَألتهُ أنْ يأخذَهَا معهُ وكانَ يحملهَا وَيطويهَا تحتَ ذِرَاعِهِ:

– مَاذَا كتَبتِ فِى هذِه الأوراقِ يَا حبيبتِى؟

– رِسَالة.

– إلى مَنْ؟

– إليكَ أنتَ يا أدهم.

– هَلْ أنَا بعيدٌ عنكِ إلى هذَا الحد، لتكتبِى إلىَّ رِسَالةً؟

– كانَ لا بديلَ أمَامِى، ولا مفرَّ لدىَّ، سوَى كتابتهَا.

– هَلْ هَذِه الأوراقُ كلُّهَا..! مُجَرَّدَ رسـالة..! رسـالة وحسْب.. أمْ أنَّ هناكَ اعترافًا مَا؟!

obeikandl.com

– كَلَّا.. ليسَـت اعترافًا.. لكنهَا رِسَـالة.. وحسْب.. فليسَ هنَا مَا أَسـرُّهُ عنكَ، وأخفيهِ يا أدهم لأعترفَ لكَ بِه الآن.. لَا تفـرِّطْ فيهَا يَـا أدهم.. ولتقرأْهَا مَلِيًّا.. عَسَـاهَا تذكـركَ بِي دائمًا فهـي حَيَاتي.. وحياةُ امـرأةٍ تملَّكتهَا غريزةُ الأُمومةِ واجْتَاحتهَا.. فقضَتْ عَلى حَياتهَا وحَياتي كتبتُهَـا بعدَ أنْ قرأتُ الحقيقَةَ، كمَا صوَّروها فِي الصُّحُفِ والمجلَّاتِ.

كنتُ أريدُ أَنْ أعرفَ سـرَّ عَذابي.. ربمَا إنَّنَا أوْ إنَّني عَلى وجْـهِ التَّحْديـدِ.. اقترفتُ الكثيرَ مِـنَ الآثام قبلَ أَنْ أُولَد!! أو ربمَا سـننعمُ بالكثيرِ منَ السـعادةِ بعدَ أنْ نموتَ..!!

وإلا لمَـا احتوَت الحيـاةُ والدنيَا عَلـى كلِّ هذا القدرِ الهائلِ مِنَ المعَاناةِ والعذَابِ والآلامِ..!

لقـد أَماطتِ اللِّثام عَنِ الأسـرارِ الَّتـي حُجِبتْ عَنِّي طـوالَ حَيَاتي، لكنهَا كانتَ ليسَـتِ الحقيقةَ كلَّهاَ.. فقد كانَ شيئًا مَا.. ينقصُهُا.

شيءٌ مَا..! وَهَذَا هُوَ مَا جعلَ أحداثهَا تلكَ غيرَ متكاملةٍ.. مَبتُورةٍ وهذَا الشيءُ هُوَ مَشَاعرِى أَنَا.

كتبتهُا كلَّهَا.. بلَا بترٍ.. بِلَا حذْفٍ.. بِلَا خجَلٍ دَوَّنتهَا كاملةً.. منْ أجلكَ أنتَ. أنتَ وحدكَ.. يَا أدهم فأنا كتبتُ إليكَ أَسرارِى ومَشَاعِرِى الَّتِى لا يعلمهَا أحدٌ سِوَاىَ.. فَهِىَ سِرُّ حَيَاتِى. وقدْ فَسَّرتْ حِكَايتى المنشورَةُ أسرارَ أمرَاضِى، وفكَّتْ شَـفرةَ حَيَاتِـى.. وحلَّتَ لغزهَا.. فلمْ تعدْ أُسـطورَة بعد.. ولَا لغزًا.. بلْ أصبحَت حقيقةً.. مُفزعةً.. مرعِبةً.

لكنهَا فِى نهايةِ الأَمْرِ.. دَعْوة للحَيَاةِ.

– لِحَياتِنَا سويًّا يَا حَبِيبَتِى.

واقتربَا مِنْ حافَةِ الطَّريقِ الزِّرَاعِىِّ..

وكانتِ الشمسُ تفكرُ فِى خلْعِ ردائهَا الأَسوَد لتخرجَ مِنْ سُـبَاتهَا.. فأجلسهَا أدهم فِى مكانٍ هادئٍ، خَفِىٍّ وَقَدْ نجحَ فِى الابتعَادِ والاختفَاءِ عَنْ عيونِ الآخرِينَ وجَلسَت لترتَاح.

كَمْ كانتْ بحَاجةٍ مَاسَّة إلى تلكَ الراحَةِ.. تشعرُ وكأنهَا لمْ ترتحْ فِى حَياتهَا سِوَى الآنَ.. الآنَ فَقَطْ.

ورقدتْ أشجَان.. فوقَ حَشَائشِ الأرضِ الزراعيَّةِ تحتَ ظلالِ شَـجَرةٍ ضخْمةٍ.. لكنْ أشجانُ أيضًا كانتْ ضَخْمة.. بلْ وَهَائِلةَ الضَّخَامَة.

أَغْمضَت عَيْنيهَا..

وراحتْ فِي سُباتٍ عميقٍ.. وَكأنهَا لَمْ تنعَمْ بهذَا الهدُوءِ وتلكَ السكينةِ منذُ عهدٍ طَويل. وكمْ بلَغتْ سَعَادةُ أدهم وهُوَ يَرَاهَا هكذَا.. نائمَةً.. هَادِئَةً.. مُطمئنةً بِجَانِبه..

وَظَلَّتْ عيناهُ تحرسُـانهَا.. كانَ يراهَـا بُعيُونه.. هُو.. هُوَ وحسْـب.. فهوَ لمْ يرهَا مُتوَحِّشـةً مُتضخِّمَةً كَمَا يراهَا الآخرونَ.. كَلَّا.. فَهِيَ عَرُوسه.. الَّتِي سَتظلُّ دائمًا جميلةً رقيقةً..حَتَّى خُيِّلَ إليهِ الآنَ، وهو ينظرُ إليهَا، وَهِيَ غَارِقة فِي سُبَاتهَا وَكأنهَا «الجَمِيلَةالنَّائِمَة».

ونشـرَ رسالَتهَا أمامَه، وراحَ يقلِّبُ فِي صَفحاتهَا بلَهْفةٍ ليقرأَهَا قبلَ أَنْ تَسْتيْقظَ مِنْ نومِهَا.

* * *

السر الغامض...

سبحَانَ الله..!

نفسُ الشَّكْل..!

الشعرُ الأسَودُ، والعينانِ السَّوْداوتَانِ ذَوَاتاَ البريقِ اللَّامعِ الخَلَّاب، اللَّتانِ تتوسَّطَانِ الوجْهَ الخَمْرِيَّ، السَّاحِرِ الجَميلِ. هيَ نفسهَا.. ملامحُ طفلتهَا. وقدْ عادتْ إليهَا مِنْ جَديد. رُدَّت إليهَا بعدَ طُولِ غيَابٍ، وكأنهَا لمْ ترحلْ عنهَا بَعْد.. وبينَ البكاءِ والضحكِ، والجدِّ واللَّعبِ، كَبُرتْ أشجَان..

خرجَت منْ غُرفتهَا زَهْرة رَقيقَة. تتحرَّكُ عَلَى أطرافِ أَصَابعهَا، وكأنهَا تَطِير.. لا تسيرُ، فتبدُو كفراشَةٍ هَائمةٍ.. تغريكَ باللَّحاقِ بهَا.

الجميعُ ينتظرونهَا فِي ردْهَة البيتِ الفاخرةِ الفسيحَةِ، وبينَ الأقاربِ والأصْدقاءِ. بحثَتْ عيناهَا بينَ هذَا وذاكَ عَنْ شخصٍ بعَيْنِهِ، كانَا دائمًا مُتَلازميْنِ، لا يفترقَانِ فِي المدرسَةِ، وبمجَرَّدِ أنْ وقعَ بصرُهَا عليهِ تورَّدت وَجْنتاهَا

خجَلًا.. وانبعثتِ الحرارةُ منْ وجهِهَا.. وتقابلتْ رموشُها بسرعةٍ فِي قُبُلاتٍ خَاطفةٍ، مُضطربةٍ، لتُخفِي خَجَلَها.

نهضَت أُمُّهَا «ضَحية» منْ مقعدهَا، تنادِى عليهَا:

– هيَّا يَا حَبِيبتِى، ضعِى أربعَ عشرةَ شمعةً بنفسكِ، وَلَا أَكْثر، فَلا تخدعينَنَا وتضعِى أربعًا وعشرِينَ. تَلفتتْ أشجانُ يمينًا وشمَالًا بحثًا عَنْ «دنيا» فَسَألتْ أُمهَا بتلعْثمٍ وَخوْفٍ وتوجُّسٍ:

– لكنْ.. أينَ.. أينَ؟

– عَمَّنْ تبحَثِينَ؟ الجميعُ هنَا حَوْلكِ وفِى انتظارِكِ، هَيَّا لتطفِئِى الشموعَ يَا حَبِيبتى.

نظرتْ خلفهَا بِتعَثُّرٍ:

– لكنْ أينَ دُنْيَا؟

بغضبٍ وتعصُّب أجابتَها أُمها:

– دُنيَا، دُنيَا، هيَّا حتىَّ لَا تتأخرينَ عَلى ضُيُوفكِ.

– لكنْ، أرجوكِ يَا أمى، لا تغْضِبيهَا فى عيدِ مِيلادِى.

أرجُوكِ.. دَعِينى أناديهَا.

جلسَت أشجانُ بجوَارِ دُنْيَا عَلى الفرَاش..
تجذبهَا وتدفعهَا للنُّهوضِ قَائلةً:
– هَيَّا مَعي إِشْ إِشْ حَبيبتك.
ابتسَمت برضًا عَذْب.
فألقتْ أشجَانُ بنفسهَا بينَ ذراعيْهَا وقَالتْ:
– لقـدْ كبرْتُ فِي هذَا الحضْن الـذِى يمنحُنِي الحنانَ والأمـانَ، ولَنْ أتنـازَلَ عَنْهُ أبدًا.. فأرجُـوك.. لَا تبتعِدِى عَنِّـى، فأنَا جزءٌ مِنكِ، هيَّا حتَّـى لَا تنزعِج أمِّى وتنْطَلق الكلماتُ منْ فمهَا كالرصَاص.. هَيَّا.
وَبسُـرعةٍ ارْتَدتْ دُنيَا رداءَهَا البَسِـيطِ، كانتْ جَميلة، فهِيَ شَـقراء جَذَابة، ليستْ بحَاجةٍ لوضْعِ أدوَاتِ وأقنعَةِ التجْميلِ.
كانـتْ أشـجَان تتحركُ بسـرعَةٍ، وكأنهَا تنـطُّ وتقفزُ كالعَصَافير، تغمرهَا السـعادةُ منْ كلِّ جَانب، ربمَا لوجُودِ أدهم، زميلهَا وَرَفيق دِرَاستهَا، وربمَا لمحَاولةِ إقَامَة هُدْنة مِنَ الصُّلح والوئَام بينَ أمهَا وَدنيَا، الَّتِى تحسِـنُ مُعَاملتهَا وَرعَايتهَا.

وقــفَ الجميعُ حولَ طَاولة الضِّيَافةِ والاحْتفَالِ فِي مأْدبةٍ مِنَ الفرح والسَّعَادة.

نظــرتْ حولهَا يميناً وشمالاً مَا أجملَ هذَا الحَشْدَ البَدِيع. كلُّ مَنْ تُحبُّهم يُحِيطُونَ بهَا، يحتفلُونَ بيوم ميلادهَا.

كانَ أدهم يقفُ يتأمَّلهَا بِحُبٍّ وإعجَاب.. توارتْ دنيَا عَن الأنظار، كَانت تلاحظُ بِشعورِ الأُم، تبادُل تلكَ الرسَائل بينَ كلٍّ مِنْ أدهم وأشــجَان، عَبْر نظرَاتهمَا المتبادَلة التِي تكشِفُ عَمَّا يُخفِيانِه وَيضمرَانه منْ حُبٍّ وَعَاطفةٍ، بريئَةٍ، جَميلةٍ.

كانَ أدهم يقفُ فِي مُوَاجهتهَا مِنَ الطَّاولة مُبَاشرة.

ابتســمَت دنيَا وهيَ تلمحهُمَا، وقــدْ خُيِّلَ لهَا أنهَا أمامَ وُجُوهٍ لعرَائس قِصَص الأطفالِ الملوَّنة، فكانَ شعرُ أدهم يتدلَّى أعلىَ جَبينه فِي خصَلاتٍ ناعمَةٍ، لامعَةٍ، وعيناهُ الواسعَتانِ تتحركَانِ طوالَ الوقتِ بقلَقٍ مُحِب، مَكتوفِ اليديْنِ.

تلفتَتْ أشجَان مرةً أُخرى لتبحَثَ عَنْ دُنياً، فقد أدهشهَا اختفاؤُهَا مرةً أُخرى.

قَلِقَ أدهمُ وَاقتربَ مِنْ أشجانَ قبلَ تهنئتهَا يَسْألهَا:

– عمَّنْ تَبْحثينَ؟

– عَنْ دُنيا. أينَ اخْتفتْ.

وأسرعَت قبلَ تقطيعِ– التُّورتَة– تنادِى عليهَا...

دُنيا.. دُنيا.. دُنيا..

وارتفعَ صوتُ الموسـيقَى صَاخبًا، وَتعالتِ الضَّحكَاتُ. كانتْ دنيا بمفردِهَا تتوسَّطُ غُرفتهَا، تمسكُ بإحدَى عَرَائس أشجَان.. فقالتْ لهَا أشجانُ بلَوْم وَعِتَاب:

– أتتركينَ عَروسـتكِ إشْ إشْ لتجلسِـى مـعَ «بَارْبى» العروس الصِّنَاعية؟

لفَّتْ دُنيا ذراعيْهَا حولَ أشجان تحتضِنهَا بفرح وشعرَتْ بأَنَّ فتاتهَا كَبرتْ وَتُحبُّ وعريسُـهَا موجودٌ أمامهَا.. فَقالتْ لهَا:

– كلُّ عام وأنتِ بخير يَا حَبِيبتِى.. أَصْبحْتِ عروسًـا وَأخرجَـت علبةً صغـيرةً فتحتْهَـا أشـجَان، فوجَدَت عروسـيْن يتراقصَانِ عَلى أنغـام انبعثَتْ مِنَ العلْبةِ الفضيَّةِ فور فتحِهَا.

خرجتْ أشجَان.. تمسكُ دَمِيتهَا، فرحةً بهَا كَطِفلةٍ صَغِيرةٍ، ومنْ بينِ أَصْدقائهَا اقتربَتْ مِنْ أدهم لِتريهُ هديَّةَ دنيا.

– انظرْ يا أدهم.. مَاذا تَرَى؟ لقدْ أَهْدتنى أُمّى الصغيرةُ، أُمّى الحبيبةُ هَذِه الهدِيّة.

اندهشَ أدهم قائلًا:

– هلْ دنيا أمكِ يَا أشجَان؟

كَلَّا يَـا أدهم، لكننِي أشـعرُ أنهَا تُحبنى أكثرَ مِنْ أُمّى الحقيقيَّـة.. فهـىَ مِثلُ أُمّى تمامًا، وَلاَ أخفيكَ سـرًّا فأنَا أُحبهَـا أكْثر مِنْ أُمّى، لقربهَا مِنّى، وحبهَا، وَفهمهَا لى. فَأنَـا لِى أُمَّان، أمٌّ كبيرةٌ وأُخـرى صغيرة. ومَا العجبُ فِى ذلكَ؟ انظرْ.. انظرْ، مَاذا تَرَى؟ بلْ مَا رَأيك؟

أشارَ أدهم بإصْبعهِ عَلى العرُوس الرّاقصَةِ قَائِلًا:

– مَنْ هَذهِ العَروسَةُ؟ هلْ هِىَ أَشجَان؟

– كلاَّ.. إنها إِشْ إِشْ.

– مَنْ؟

– إِش إِش.

– إِش إِش.. جميلٌ هذَا الاسْم مَنْ أَطلقه عَليكِ؟

– أُمّى دنيا.

دونَ أنْ تـدرى أطلقتْ عليهَا كَلِمةَ أُمِّى، شـعورٌ خَفِىٌّ يفرضُ نفسَه عليهَا، فلمْ تعدْ بقادرَةٍ عَلَى مُقاومَتِهِ.

– كَمْ هِىَ رَقيقَة يَا إش إش.. أنا أيضًا أصبحْتُ أحبهَا مِثلكِ تمامًا.

جرتْ أشجَان وأسْرَعت تعدُّ صَحْنًا مِنْ أشهَى المأكولاتِ لتقديمِهِ لدنيَا..

– مَا رَأيكِ يَا أمىِّ فهذَا مَا تَخيرتُهُ لكِ؟

كادَ قلبهَا يقفزُ مِنْ بينِ أَضْلاعها فرحًا، وَسعادةً بكلمَةِ أُمِّى.. لأولِ مرَّةٍ تناديهَا بِأمى.. دونَ طلبٍ أَوْ إشارةٍ أوْ حتىَّ مُجَرد تَلْميح.. كَمْ أسْعدتهَا تلكَ المنَادَاة.

فقالتْ لَهَا:

– أرجـوكِ يَا حبيبتِـى، لا تكررى تلكَ المنَـادَاة مرةً أُخـرى وإلاَّ سمِعَتـكِ أُمـك، وَظَنَّتنِى حَرَّضتـكِ وَدفعتكِ عَلَى ذلكَ!!

قالتْ أشـجَان بعنـفٍ بعـدَ أَنْ ضَاقتْ ذرعًـا بلوائح المحذورَاتِ، وقوائمِ الممنوعَاتِ التِى تفرضهَا عليهمَا أمهَا ليلاً ونهارًا.

– وماذَا فِي ذلكَ؟

– فِي ذلكَ حِرْمانى مِنكِ يَا حَبيبتى.

– أتظُنينَ أنَّ أُمّى بوسعِهَا التَّفْريق بينَنَا؟

– إذا شعرتْ بِهَذا الحُبِّ، لَنْ تَتَردد فِي التفريقِ بينَنَا، فهِيَ تحبكِ كثيرًا، ولنْ تسمحَ لمخلوقٍ عَلَى وجهِ الأرضِ أخذكِ منهَا.

– لكنَّكِ تُحِبِّيننِي أكثرَ منْها، ثُم أننى لستُ حِكْراً عَليْهَا، فأنا لستُ ملكًا لهَا، وَأنا أُحبكِ كثيرًا، لكننِى لا أعرفُ لمَاذَا أنتِ دائمًا...

قاطعتهَا دنيا وهِيَ تدفعهَا نحوَ الباب بلطْفٍ:

– الوقتُ ليسَ مناسبًا لإثارةِ تلكَ الأسئلةِ الآنَ، اخْرجِي لضيوفكِ وأصْدقائكِ، وارقُصِى والعَبِى مَعَهم.

– أألعَبْ!! أتظنينَ أنىّ مَازلتُ صَغِيرة.

– كلاَّ يَا حَبيبتى.. لقدْ كبرْت.. كبرْتِ جدًّا ونضجْتِ وأصبحْتِ عروسَةً..

خرجَت أشجان مُتظاهرةً بأنهَا نفضَتْ كلَّ الهواجسِ منْ رأسهَا.. كانتْ أُمها مَشْغولة بضيَافةِ المدعوِّينَ للحفْلِ.

وفجأةً دقَّ جرسُ الهَاتف.

أسرعَت أشجَان لتجيبَ عَليْه..

قالَ المتحدثُ باللُّغةِ الإنجليزيَّة:

– ضَحيَّــة هَلْ خَابرْتكِ فِي وقتٍ غيرِ مُناســبٍ، أسمعُ صَخْبَ مُوسيقَى وَأغَانِي؟

– لستُ ضحيَّة.. مَن المتحدِّث؟

– مَعْذِرة.. هَلْ منَ الممكنِ التحدُّثِ معَ السـيدةِ ضحيَّة مِنْ فَضْلكِ؟

– إنهَا مَشْغولة الآن.. مَنِ المتحدِّث؟

– أنا أنتِينُورى.

أســرعَت ضَحِية تجرِى نحوَ أشــجَان، عندمَا سَمعتهَا تتحــدَّثُ بالإنجليزيَّــة، وخطفتْ سَمَّاعــةَ الهاتفِ بفزعٍ منْ كفِّ أشــجَان.. وبطريقةٍ غير لَائقةٍ أدهشَت أشجان، وَأثارَت فُضُولَهَا، وهىَ تقولُ لهَا بتوجُّس:

– عُودى يا حَبيبتِى لأصدقائِكِ وحفلتِكِ.

– مَنْ أنتينورى هَذا يَا أُمى؟

– اذهَبى الآنَ.

وجذبتِ الأمُّ الهاتفَ بأكمَله لنقْلهِ داخلَ غرفتهَا وأغلقَت دُونهَا البابَ.

لاحظَ أدهم تغُّيرَ وتبدُّلَ أشجَان، فَقالَ وهُوَ يُشيرُ بأصْبعهِ عَلى طَبقِ المَأكُولات:

– وأنتِ يا إش إش.. أَتتَنَاولى شيئًا مَعِى، هيَّا تفضَّلى، لقدْ أكلْتُ نصْفَ هذَا وعليكِ بالنصْفِ الآخرِ.

لَمْ تَسْمعْهُ أشجَان، بلْ كانتْ شَاردَة فِى الهاتفِ وأنتينورى وَعِلاقتهِ بأمهَا، واضْطرَاب أمهَا لسمَاع اسْمه، ومحاولتهَا إخْفاَء الحدِيثِ الَّذِى يدورُ بينهمَا، كانتْ حَائرة لغُموضِ أمهَا وَتَصَرُّفاتهَا، وقسوتهَا مَعَ دنيَا، وَلمْ تنتبَهْ أشجَانُ مِنْ شرودهَا إلا بنداء أدهم عليهَا المُتكرِّر.

– إش إش.. إش إش.. أينَ ذهبتِ؟

– كلاَّ يَا أدْهَم هيَّا بِنَا.

– إلى أينَ؟ ألمْ تسمعِى مَا قُلته لكِ؟ أُريدكِ أَنْ تَأكلى ممَّا أكلتُ منه ليكمِّل كلٌّ مِنَّا الآخرَ.

مَدّت أشـجَانُ يدهَا وَقد أثارَت أُمَّهَا حُزْنًا دَفِينًا فِي نفسـهَا. حُزْنًا طالمَا عَجَزتْ عَـنْ إخْفائه. لقدْ تركتهَا وأسرَعَت إلى غُرفتها لتحَادِثه كيفمَا تَشاء، لقدْ حرّكتِ الجمرَ النائمَ فِي كيانهَا.. لتثيرَ حولهَا جوًّا مِنَ الحيرَةِ والقلقِ مِنْ جديدٍ.. عاصفةٌ مِنَ الهواجسِ والشكوكِ تنبعثُ مِنْ داخلهَا لتحطّمَ سُكُونَهَا وهدوءَهَا وَكلَّ مَا يحيطهَا.

لماذا تُخفي الأمُّ عنهَا أشـياء لا حصْرَ لهَا؟! لماذَا دائمًا تتهامسُ مَعَ أبيهَا وعندمَا تقتربُ منهمَا يقطعانِ حديثَهُمَا باضْطراب؟ قطعًا لأنهمَا يُخفيانِ سِـرًّا مَا، مُتعلقًا بهَا هِيَ عَلـى وجْهِ التَّحْديدِ.. وربمَا مُتعلقًا بدُنيا؟ ولماذَا تكرهُ دنيا كلَّ هَـذِه الكراهيةِ وتبغضهَا؟ ولماذَا تعيشُ بينهمَا دنيا إذَا كانتْ رَاغِبة عنهَا.. زاهدَةً فِيهَا؟

فِي لحظةٍ واحدَةٍ.. تغيَّرَ لَوْنها.. واصفرَّ وجهُهَا..

وتاهَتْ عَنِ الحضورِ.

وَعبثًا حاولَتْ قدرَ اسْـتطاعتهَا، إخفَاءَ مَا بهَا منْ قَلَقٍ وَحيْرةٍ واضْطِرابٍ حَتَّى يَنْتهِيَ الحَفْلُ. لكنَّ أدهم بسُـرْعةٍ تحوَّلَ مثلهَا.. قلقًا لشُـحوبهَا، حائرًا لشرودِهَا.. أسْرَعت

أشــجَان بعدَ انتهاءِ الحفلِ إلى غرفةِ أمهَا، وكمْ ظلَّت تنقُرُ وتقــرَعُ عَلى البــابِ بأناملِها الرَّقيقةِ الناعمَــةِ. لكَنَّ أمهَا تظاهرَت بالنوم، هربًا مِنَ الإجابةِ عليهَا. فَلَاذت أشجَان بدنيًا تسألهَا عَلّهَا تريحهَا:

– أتعرفينَ شخصًا يُدْعى أنتينورى؟

اهتــزّتِ الأرضُ مَنْ تحتِ قدميْهَــا، زِلزالٌ كادَ يقضِي عليهَــا بســمَاعهَا اسْمُــه.. وامتقَــعَ وجهُهَا وَهِــىَ تردّدُ باضْطرابٍ وخَوْفٍ:

– أنتينورى!!

لبن العصفور حقيقة ..!

اندهشتْ أشـجان هل الجميعُ يعرفونَ أنتينورى هذا، ولاَ يجْهله أحدٌ سواها؟

– مَنْ هُوَ أنتينورى هذا؟

– اسْألى أُمكِ يا حَبيبتى.. فأنا لا أعرفُ شيئًا.

– وَأنا الآنَ أسألُ أمّى.. ألسْتِ أُمّى؟ فلا تكذبينَ علىّ، فالكذبُ لا يعرفُ طريقهُ إليكِ.. وإذا كنتِ حقًا لاَ تعرفينَ؟ فلمَاذا امتقعَ وجهكِ واضطرَبْتِ عندَ سَماعِ اسْمه؟ إذا كنتِ حَقًا لاَ تعرفينَهُ!! لماذا تخفينَ علىّ الحَقِيقةَ؟!

حتَّى أنـتِ لا تحبينَ أنْ تريّحينـى، إنكمَا تخفيانِ عَنـىّ أشـياءَ كثيرةَ، ولاَ أحدَ يُجيبُ علىّ كلّ الأسـئلةِ الّتِى تدورُ برأسِـى فتكادُ تعصِفُ بـى. إنكمَا تتضافرَان علىّ تعْذيبى.

تَمزّقـتْ دُنيـا وَهِىَ تراهَـاَ تتلظىّ بنيـرَان الحيْرَة، والقلقِ، وهى تقفُ عَاجزةً، مكتوفةَ اليديْنِ، لاَ تستطيعُ الإجابَةَ عليهَا.

– أيةَ أسئلةٍ تلكَ؟ وَلِمَاذَا تَشْغلينَ نفسَكِ بِأشياءَ لاَ عِلاَقة لكِ بهَا؟

– كَلاَّ.. أنتِ تعرفيـن جيدًا أنَّ كلَّ مَا يحدثُ لهُ علاَقة بِـي، وَإلاَّ فمَا الدَّاعي إذَنْ لإخْفَائـه عَنِّي؟ إنكِ تعرفينَ كلَّ شيءٍ.. مِمَّ تخافينَ؟ وإذَا كانتْ أُمِّي حَقًّا تكرهُكِ فلمَاذا تَتْرُكِكِ تعيشـينَ مَعَنا، فِي بيتٍ واحـدٍ؟ مَا الذِي يضطرهَا ويجبرهَا عَلَى ذلكَ؟ مَا الذَي يضطركِ عَلَيَّ تحمُّلهَا فِي سبيلي؟!!

–إش إش حَبيبتِي.. لاَ دَاعي لكلِّ هذَا القلقِ، صَدِّقِيني يَا حَبيبتِي لوْ كنتُ أعرفُ شَيْئًا مَا، مَا أخفَيتُه عنكِ.

تركتهَا أشجَان وهِيَ لاَ تزالُ مُضْطربة، حَائِرة، غَيْر مُقتنعة بإنكَارها مَعْرفة مَا يَحْدث. لكنْ..! وَمنذُ هذِه اللَّحْظة قررَتْ أشـجَان أَنْ تفهمَ وَتعِيَ كلَّ شيءٍ، فهِيَ لمْ تعدْ صَغيرة، لقدْ كَبِرت، كبرتْ كثيرًا. فالأمرُ يختلفُ الآنَ أشدَّ الاختِلاَف.

كَبِرَت أشـجَان. أصبحَت عروسًا مِنْ عرائِس الخيالِ.. ولكنهَا عروسٌ حائرةٌ، دائمةُ التفكُّر والتأمُّل. لاَمعةً عيناهَا كالمرآةِ.. تكشـفُ لناظريهَا عمَّـا بداخلهَا مِنَ اضْطِرَاب، وقلقٍ، وَعذابٍ. وابتسامتهَا العذْبَة، وَضحْكَتِهَا السَّاحِرة..

الَّتِى لا تشبهَا ضِحْكة أنثَى فِى العالم، فليسَتْ بالضحْكةِ الهادئــةِ ولاَ الصَّاخِبة، ولكنهَا ضحْكتهَا هىَ. هىَ وحدهَا التِى تَضْحَك تلكَ الضحْكة السَّــاحرَة. فهى تضحكُ بملءِ فيهَا، فتشعركَ وكأنهَا لا تضحكُ هكَذا أبدًا لأحدٍ سوَاك.. نابِعَة منْ قلبهَا الصَّغيرِ ضِحْكتهَا تلكَ.

هِىَ وحدهَا التِى تمتلكُ تلكَ العذُوبة السَّــاحِرة، الخلاَّبة، فتسرُّ الناظرَ إليهَا، لتزيلَ كلَّ مَا بهِ منْ أحــزانٍ وَهُموم وَآلام.

رشِيقة هِىَ.. كالفراشَة، تسبقُ فتياتهَا اللَّاتِى يتحَركْنَ، فتظُــنُّ عندَ رؤيتهَا أنهَا تطيرُ لاَ تسِــير. وَقــدر هذِه الرقَّةِ ونُعومتهَــا، قدرَ خشــونَة أدهم وَفُتوته. كانــتْ ضفيرتهَا السَّوداء التِى تتدلىَّ عَلى صَدْرها تصلُ إلى خِصرهَا الدقيقِ وكأنــكَ أمامَ قانون مِنْ قوانيــنِ الطَّبيعةِ الذى ليسَ بهِ أىُّ خلــلٍ أو عجزٍ أو نقصٍ.. فيصعبُ عليكَ العُثور فيهَا عَلى غلطةٍ واحدَة بجسدهَا الجميل، الرَائعِ الحُسْن والجمَال.

يكفِى نَظْــرة واحدةٌ منهَا لتعلَمَ كلَّ مَا تخفيهِ وتســترهُ وتبطنهُ بداخلهَا، عينانِ شفَّافتان.. كالمرآة، تعكسُ كلَّ مَا فيهمَا.. دونَ تحدُّثٍ أو كلامٍ أو حَتَّى مُجردِ إشَارة.

لكنْ مَا بالهَا اليومَ تمشـى بخطـوَاتٍ بَطِيئَةٍ عَلىَ غيرِ العَادة، كانتْ تفكرُ فِى حُزْن دنيَا، وقسـوةِ أمهَا عليهَا، وَفُتورِ أبيهَا (سـرحان)، وعدمِ اكتراثِهِ بمَا يحدثُ سِـوَى إرضَـاء أمهَا، كأنَّ كلَّ مهمتـهُ فِى هَذا البيتِ، وَدَوره فِى الحياةِ هُوَ إرْضاؤهَا وحَسْـب.. أحيانًا تشعرُ أنه لا توجدُ صِلة مَا تربطهَـا بِهذَا الرجُلِ الـذِى يُدْعَى أبوهَا، لوحةٌ غريبةٌ.. مِنْ صُنْعِ الحيَاةِ، لا تفارقُ عينيهَا.

كانتْ تسـيرُ كعروسٍ مُتحرِّكةٍ، حَتَّـى أدهم لمْ تبصرْهُ عيناهَا، كَأنه ليسَ وَاقفًا كَعَادتهِ فِى انتظارِهَا يُنادِى عَليهَا بينمَا هِى تسيرُ كالنائمةِ أو التائهَة:

– أشجَان.. أشجَان.

التفتتْ بغتةً، فانتفضَت ضفيرتُهَا الطَّويلَة للخلفِ وهِىَ تَهْمِس: أدهم!!

بسرعةٍ عَلت الفرحةُ وجهَهَا.. كمْ هِىَ بحاجَةٍ إليهِ الآنَ أكثرَ مِنْ أىِّ وقتٍ مَضَى.

كانتْ مجرَّد رُؤياه تريحُهَا مِنْ أيةِ حيرةٍ تعتريهَا، تنقذُهَا مِنْ عذابِ الشكِّ وَقلقِهِ.

– أشـجانُ منذُ عيدِ ميلادكِ وأنـتِ عَلى غيرِ مَا يُرَام، دَائمَةَ التَّفكيرِ، شَـاردةَ الذهنِ، مَاذا بكِ؟ إذا كنتُ لسـتُ أهلًا لثقتكِ، فليسَ هناكَ مَعْنى وفائدَة لوجُودى إذَنْ!

جَمَعتِ كلَّ قواهَا لتبتسـمَ، بلْ لتخفىَ كلَّ مَا فيهَا مِنْ ألمٍ وَعذابٍ عَنه، فجاءتهُ ابتسامتُهَا تلكَ فَاترَة، حَائرة:

– كيـفَ تقولُ ذلكَ القولَ يا أدهمَ؟ أنتَ لا تعرفُ إذَنْ كَـمْ هُوَ قدْرُكَ عِنْدى.. أنَا أحيانًا أشـعرُ أنكَ كلَّ دُنياى، وأنه ليسَ لى أحدٌ سوَاكَ فِى هَذِه الحَيَاة.

– لكننِى لاَ أستطيعُ رُؤيتكِ بهذِه الحيْرَة وَالقَلقِ، وأقفُ عَاجزًا مَكْتُوف اليديْن، ليسَ بوسْعى أن أرَى أمواجًا عَاليةً تُعَكرُ صَفوَ شُطآنى الهَادِئة بعينيْكِ!! أجيبِى عَلى كَلامِى.. مَا الذِى يقلقكِ بهذا القدْرِ الهَائل ويبعدكِ عَنىَّ؟

– لَنْ يبعدَنى عنكَ شىءٌ مَا أبدًا يا أدهم.

لَمْ تهدأ حَالةُ أدهم بعدَ فأردفَ يقولُ:

– فلمَاذَا إذَنْ لا تُصَارحيننِى، عسـاىَ أجدُ لكِ مخرجًا ممَّا أنتِ فيهِ، أوْ يكونُ بوُسعِى مَا أفعله منْ أجلكِ؟

– صَدِّقنى يَا أدهم ليسَ هناكَ شىءٌ مَا.

وتوقفتْ أمامَ شـجرَة كبيـرَة وقَدْ تَدَلـتْ فروعُهَا عَلى الأرض، فجلسَـتْ عندهَـا لتُحَادثَهُ، ولكنهَا لمْ تسـتطعْ التحدُّثَ إليه، بلْ رَاحت تطيلُ النظرَ إليه، وكأنهَا تتأمَّلهُ بصمْتٍ، فِي حَالة وَدَاع.

• – أشجَان هَلْ تُحبيننى قدرَ مَا أحبكِ؟

– ليتكَ أنتَ تُحبنى قدرَ مَا أحبكَ

– لكننِـى خَائف.. فإخْفَاؤُك عَنـى مَا بكِ، يُخِيفنى، يُشْعرنى بالغُرْبة.. وبأنكِ وَحيدة رغمَ وجُودِى مَعَكِ!!

أفزعتهَا أقوالهُ تلكَ، فتلفتتْ إليه مَذعُورة.

– إياكَ وهذَا القولَ مرةً أُخرى يَا أدهم؟

أنتَ لا تعرفُ إذنْ كَمْ أحبُكَ حَتَّى الآنَ!!

كانتِ الثقةُ والأمانُ والحبُّ هِىَ كـلُ رأسمالهمَا فِى هَذِه الدنيَـا، ينتظرَانِ متَى يأتِى اليـومُ الموعُودُ الذِى يترقَّبَانِهِ ليجمعهُمَا.

* * *

فتحـتِ الأُمَ (ضحية) طَاولـة الكتابةَ لتخرجَ ورقةً منْ دفترِ رَسَـائلهَا، لتدوِّنَ بِهِ مَا سترسِـلُهُ لأنتينورِى

عَبْرَ –Internet– الإنترنت بالكُمبيوتر. وجمعتْ عددًا مُختلفًا مِنْ صورِ أشجَان، ورَاحت تكتبُ أحداثَ حياتهَا بكلِّ التفاصيلِ الممكنِ عرْضهَا، كمَا طلبَ منْهَا، وَغمرتهَا السعادةُ وهِيَ تقلّبُ فى صورهَا لتختارَ منهَا أيهَا سَتُرسله إليه.

كانَ أنتينورى لاَ يُضيعُ ثانيةً واحدةً منْ وقتهِ، فهوَ يجلسُ فِى معملهِ فِى إيطاليا ليقضىَ معظمَ وقتهِ بينَ أبحاثه وتجَاربه العلميّة، فهوَ يعملُ كثيرًا. وجَاءه خبرُ استمرار نجاح تجربته العلمية أشجَان وَسعادةِ أمهَا بهَا ليمسحَ بهذا النجاح كلَّ تعبهِ وَإجهَاده ومَسيرَته البَحْثيَّة.

لقدِ استطاعَ إعادةَ الابتسامةِ والحياةِ لامرأةٍ بعدَ طولِ يأسٍ وحرمَان، وقدْ تعوّدَ هُوَ أنْ يفعلَ المستحيلَ، بلْ لاَ يوجدُ فِى حياتهِ مَا يُدْعى بالمسْتحيل. ولذلكَ لُقّبَ (بأبِى الأطفَالِ المسْتحيلين).

دخلتْ زوجتهِ، وشريكتُهُ العلميّة، لتضعَ أطباقًا زُجاجيةً صغيرةً مُرتبةً مرقّمةً– أطباقَ بترى المعْمَليّ– المليئةَ بالبوَيْضات المُخَصّبة صِناعيًّا فِى الحضَّانةِ لتخْصيبهَا.

وكانَ هذَا هُوَ المستشفىَ الوحيدُ منْ نوعهِ بعدَ إغلاقِ عيادته الخاصَّة، وطرْده منَ الجامعَةِ لمحَاولتهِ اسْتخِدام الإنسَان فى تجَاربه العلميَّة وكانَ هاربًا منَ العدالةِ بعدَ خَرْقهِ للقَانُون.

ولكنْ بمسَاعدةِ زَوْجته أَصرَّ عَلى عدم ترْكِ مُحَاولَات إجرَاء تجَاربه البشريّة، حتَّى ولَوْ تَمّ رجْمهمَا لحين نجاحهَا.

كانَ نجاحُه يزيدُه طمعًا.. أليسَ لمطَامع الإنسَان منْ آخر..؟ أمْ أنه كلمَا حققَ مطمعًا جدَّ فى مطمع غَيْره؟ وربمَا يستعدُّ أنتينورى استئنافُ قَضِيته لأَخْذِ تعويضٍ لمَا حدثَ له سَابقًا.. وَعَدم البحْث عَنه للقبضِ عليهِ عندمَا يُشاهِدُ العالمُ حَصيلةَ تجَاربه، وأنهَا ليستْ ضِدَّ القيم والأخلاقِ.

ويستطيعُ بذلكَ أنْ يَسْتعيدَ حُريتهُ وَيُلْغِى الحكم عليهِ الَّذِى لمْ يُنَفَّذ لعدم كفايةِ الأدِلَّة.

ورغمَ أنه فِى قَضِيَّةٍ مُعلَّقةٍ، إلاَّ أنَّ العديدَ والكثيرَ لجأُوا إليه سرًّا وليسَ علانيةً بحثًا عَنِ الإنْجَاب والخلودِ، فَمنهم مَنْ يَرَى خلودَ نفسِه باسْتنسَاخه، ومنهُمْ مَنْ يعلقُ كلَّ آمَالِ وجُودِه فِى إنجَاب طفلٍ يرثهُ ويرثُ أهلَهُ مِنْ بعْده.

كثرتْ أسئلةُ أشجَان لأمهَا ..

وَلأولِ مــرةٍ تقتحمُ أشــجانُ خَلــوةَ أبيهَــا وأمهَا وهمَا يتضاحَــكَانِ وحدهمَا فِى حديقةِ البيتِ الصَّغيرةِ فســمعَتْ أقوالَ أمهَا:

– لكنَّ أنتينورى سعيدٌ جدًّا، إنَّهُ يريدُ رؤيةَ أشجَان.

سألتهمَا فورَ قربهَا المُفَاجِئ لهمَا:

– مَن الذى يريدُ رُؤْيتِى يَا أمى؟

بتعجُّــبٍ وَاضْطِراب:

– رُؤيتُكِ..!

– أجلْ.. أنتينورى..!! أليسَ كذلكَ؟!

وأنتَ أيضًا تَعرفهُ يَا أبِى!!

كانَ (سرحان) شَــارِدَ الذِّهْنِ ليسَ لهُ قُدرةُ الأُم فِى تحمُّل أسئلتهَا الَّتِى لاَ تنتهِى، فأبعدَ مقعدَهُ عَنِ الطَّاولة. وجذب الصحيفةَ اليوميَّة بيديْه. واستأذنَ زوجَته وتركَهُمَا.

كانتْ ابنةٌ غَريبة بالنســبَة لهٌ. فهوَ لمْ يشــعرْ للحظةٍ واحدةٍ ببنُوّتهَا، وَشَــردتْ أشــجَان، حتَّــى أنتَ تعرفُ أنتينــورى، لابدَّ أنَّ دنيَا تعرفُــهُ أيضًا. ليسَ هناكَ مجالٌ

للشـكّ الآنَ. بالفعل هناكَ سِرٌّ ولغزٌ لابدَّ مِنْ كشفِهِ وحَلِّه.

فعَاودَت تسألُ أمهَا: – مَنْ هُوَ أنتينورى هَذَا يَا أُمِّى؟

لماذَا تخفيَان عَنىِّ سرَّ هذَا الرجُل الغَامِض وَعلاقتَه بكُمْ؟

وَبسـرعةٍ اَسْـتعادَت الأمُّ هدوءَهَـا وابتلعَـت تَوَتُّرهَـا واضطرَابهَا وَقَالت:

– هُـوَ الطبيبُ يَا حَبيبتِى الَّـذِى أنقذكِ وأنقذنِى أثناءَ وِلَادتكِ.. ألمْ أقلْ لكِ إننى وَلدتكِ هناكَ فِى إيطاليا.. أنت عندئذٍ لمْ تسأليِنى لمَاذا؟

كانت أشجان تتفحصُ أمهَا ونظَراتها بحثًا عَنْ خَائنةِ الأعيـنِ ومَا تُخفيهِ الصُّدور، تُحدثهَـا وكأنهَا تبحثُ عَن السـرِّ الغامِضِ الَّذِى تُخفيهِ فِـى كلمَاتهَا. ونظراتهَا التِى تحاولُ إخفاءهَا وهِىَ تخاطبهَا. فسألتْهَا أشجَانُ:

– لمـاذَا يَا أمى؟ لماذَا تمَّت ولادتى فِى إيطاليا؟ أليسَ فِـى مصرَ بأكملهَا أطبَّاءُ ولَادة مَاهرونَ لإنقاذِى سِـوَى فِى إيطاليا؟ ولماذَا إيطاليا وليسَت إنجلترَا أو أمريكَا أو فرنسَا؟ ولمـاذَا دنيَا أيضًا عَلى وجْـه التحديدِ، وَمَا علاقتكِ بهَا، بلْ مَا علاقتهَا الحَقيقيةُ بِى؟

انهالتْ أسـئلتهَا كالسَّـيلِ الجَـارفِ مُحَطِّمَة بِهِ كلَّ الحواجزِ والقيـودِ الواحِد تْلوَ الآخر.. بلاَ توقُّفٍ أَوْ هُدنةٍ أَوْرأفةٍ فِى طَريقةِ حَديثهَا. كانتْ لهْجتهَا شَدِيدَة.. قَاسِيَةً، مليئـةً كلهَا بالاتهَامَات، وكأنَّ كَلَّ مُهمْتهَا انحَصرت فِى البحثِ عَنْ دليلٍ لإدانتهَا ولإثباتِ الاتهَام الذِى يملؤُهَا.

– وَإذَا كنَّا فِى إنجلترَا لتسَـاءلت لمَاذَا ليستْ إيطاليا؟ كانَ هـذَا الطبيبُ أنتينورى ينقدُ الكثيريـنَ مِنْ أصحاب العللِ المسْتَعْصيةِ للعقْم والإنجَاب، وكثيرًا مَا كانتْ تتردَّدُ أخبارُهُ فِي الصحفِ والمجَلاتِ، هَذَا كلُّ مَا فِى الأَمْر.

ورغَـمَ أنَّ هذِه الإجَابةَ غيرِ مُقْنعةٍ لهَا، إلاَّ أنهَا منعتهَا من تكرَار هذَا السُّؤَال.. ثُمَّ لاحقتهَا بسؤَالٍ آخرَ وكأنهَا فِى تحقيقٍ رَسْمى: – ودنيا؟!

قاطعتهَا بِحِدَّةٍ:

– مَاذا بهَا دنيَا؟

– لمَاذَا دنيا عَلىَ وجْهِ التَّحديدِ؟

– لأنهَـا كانتِ المُرْضِعةُ الوحيـدةُ التى عثرنَا عليهَا، واختيارهَـا كانَ نتيجةَ صحَّةِ التحَاليـلِ والفحوصِ التى

أُجريتْ عليهَا وطلبنَا منهَا الإقامةَ. فرحّبتْ حيثُ لاَ أُسرةَ لَهَا.. ولاَ مُعِين وَلاَ رَفيق.. فماذَا فِي الأمرِ مِنْ غَرَابة؟

– فِي الأمرِ..

قاطعتهَا الأم بقَسْوة:

–أشــجَان كُفِّي عَنْ أسْئلتكِ تلكَ.. أَمْ أنه تَحقيقٌ وَلابدَّ مِنَ اسْــتجْوَابِي، أَنَا لا أفهمُ كيفَ تشــغلينَ بالكِ وفكركِ بمثل هــذِه الأمورِ التافهَةِ وتتركينَ دروسَــكِ، عُودِي إِلَى غُرْفتكِ مِنْ فَضْلكِ.

مَامِنْ حديثٍ بينهمَــا إلاَّ وَازْدادت الأمُّ خوفًا وازْدادت أشــجَان بُعدًا، واتهَامًا، وإحسَاسًــا بأنهَا ليسَــتْ أمها، وَلا يمكــنُ أنْ تكــونَ أمًّا لهَا، بأيِّ حَــالٍ مِنَ الأحوَال!! وَالــذِي لا شــكَّ فيهِ هُــوَ أنَّ دنيا هِــيَ أمهَا عَلَــى وجْهِ التحديدِ، ولا ريبَ فِي ذلكَ. فَلابدَّ مِنْ وجُودِ جَريمَةٍ مَا.. يُخْفيانهَا، يتسَتَّرَانِ عليْهَا.

* * *

تحرَّكت تجــرى خَلفــه، فهَى دَقيقة فِــى حجمِهَا، رَشــيقةُ القَوَام، جَرَت أمامهُ تُغريــه باللِّحاقِ بهَا، وَتوالتْ

ضحكاتُهَا، فسمع زقزقةَ عُصْفورة تغردُ، وهو يلاحقهَا فيمسِكُ بِهَا قائلًا:

– إلى مَتَى تُخفينَ عَلىَّ مَا تسرِّينَهُ؟ ألا تعرفينَ أنه بوسْعِى أنْ أفعلَ مِنْ أَجْلكَ أىَّ شىءٍ؟

ابتسمَت بعُذوبةٍ ونعُومةٍ وَهَمسَتْ تَسْأله بِخفّةٍ ودَلاَلٍ:

– أَىَّ شىءٍ .. أىَّ شىءٍ!!

– ألديكِ شكٌّ فِى ذَلكَ؟

– حَتى ولوْ كاَنَ ..

قاطعهَا:

– حتَّى لوْ كانَ لبنُ العُصفورِ .. سآتيكِ بِهِ إنْ شِئْت؟

– وَهلْ للعُصْفور مِنْ لبنٍ؟

– طبعًا يَا حَبيبتى للعُصْفورِ لبنٌ.

ضَحِكَتْ:

– كَمْ أنتَ طَرِيفٌ يَا أدهم وأنتَ تتفكَّهُ هكَذَا.

وَبسُخريةٍ أَرْدفت تقولُ:

– وَللعصفورِ وليسَ للعُصْفورةِ.. أليسَ كذلكَ..

أىْ للذكَر وليسَ للأنثَى؟

وَرَنَّتْ ضحْكتهَا العَاليَةُ لتمْلأ أصْداءَ المكَانِ مِنْ حولهمَا.
بثقةٍ قالَ أدهم: قُلْتُ لكِ إننِى لَا أتفَكَّهُ.
اعْتدلَت فِى جلستهَا وَهىَ تسألهُ بِجِديَّةٍ:
– أَتجِدُّ فيمَا تقولُ..؟
– منذُ مَتَى أَقُولُ هَزْلًا؟؟
فنظَرتْ إليهِ بتعَجُّبٍ مُتَسَائلة:
– لا تغضبْ هَكَذا.. فقلْ لِي إذَنْ مَا هُو لبنُ العُصْفور؟
أردفَ أدهم يشــرحُ لهَا وَكلُّهُ ثقــةٌ بِمَعْلومَاته التِى راحَ يســقيهَا إياهَــا كُلَّ يوم، فكانتْ تتلَقَّى منهُ وتشــربُ مِنْ كأسِ الحبِّ والمعْرِفة فِى آنٍ واحد.
– لبنُ العصفورِ لا يختلفُ فِى جَوْهرة وَتَرْكيبته عَنْ لبنِ أىِّ حيوَانٍ منَ الحيَواناتِ الثَّدييةِ، فهوَ يَحْتوى عَلَى المادَّة

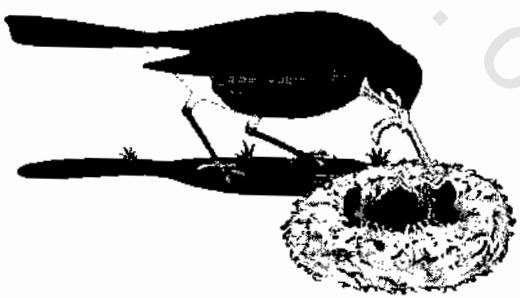

البروتينيَّة التِى تسمَّى (كازينوجين) وَدُهنٍ وَسُكرِ اللَّاكتوزِ وهىَ نفسُ مُكونَاتِ اللَّبنِ الطَّبيعي المعْروفِ لنَا جميعًا..

إلاَّ أَنَّ لبَن العصفورِ أَو الطيورِ بصفةٍ عَامة، يختلفُ عَنْ لبنِ الحيوانَاتِ الثديِيَّةِ الأُخْرى فِي بعضِ الخواَصِّ الطَّبيعيَّةِ لأنهُ ليسَ سَائِلًا..

لكنَّهُ عَلىَ هيئةِ فتاتٍ أبيضَ اللَّونِ هَشٍّ.. سَرِيعُ التكسُّر.. أشبهُ مَا يكونُ بفتَاتِ الجبنِ الأبيضِ، وَللعلمِ يَا حَبيبتى فإنَّ لبنَ الطائرِ تفرزُهُ حُوَيصَلة الأنثَى وَالذكرُ عَلىَ السَّوَاء.. ولذلكَ يشتركُ الذكَرُ والأنثَى -معًا- فِي إطعَام أفرَاخهمَا الصَّغيرة، وعندَما تضعُ العصفورةُ أو العُصفور منقارهَا فِي فمِ أفراخهَا الصِّغارِ يرتعِشَان..

إنهمَا فِى الواقِع يُطْعمَانهم لبنًا حقيقيًّا كانَ فِي حُوَيْصلتهمَا.. وَمَا يَقومَان بهِ هُوَ اجترَارُه وَاسْتِرْجَاعُه مِنْ حُوَيْصلتهما إلى فم صغارهمَا، ومنْ هنَا يَا حبيبتى فإنَّ لبنَ العصفورِ حَقِيقة عِلميّة، وليسَ خُرَافة، كَمَا يظنُّ أوَ يعتقدُ البعضُ مِثلكِ يا حَبيبتى.

قالتْ أشجَانِ والحبُّ والإعجابُ يملؤُهَا:

كَـمْ يعجبنِى فِيـكَ ثقتكَ تلكَ يـا أدهم وأنـتَ تُدْلِى بمعْلُوماتكَ تلكَ الطَّرِيفَةَ.. الشَّـيقة والحقيقيةَ أيضًا. فرغمَ أننَا فِى عُمْرٍ وَاحِدٍ إلاَّ أننِى أشـعرُ بكبركَ عَنِّى، ووعيكَ، لكِنْ مِـنْ أينَ أتيْتَ بِكلِّ هذِه الجَاذبيّـة؟ فثقافَتُكَ تُضْفِى عليكَ قوةً وتزيدكَ روعَة فوقَ قُوتكَ.

– القرَاءةُ يَا أشجَان.. فأنَا أحبُّ القراءةَ جِدًّا.

– قَدْرَ حُبِّى لَكَ؟

– حُبِّى لكِ لاَ يُعَادلهُ شىءٌ فِى الوُجُود.

– أنتَ تحبُّ كُلَّ شـىءٍ جميلٍ يَا أدهم، لمْ أرَ شـيئًا جميـلاً إلا ووجدتكَ تُحبُّه. فأنتَ تحـبُّ كلَّ مَا يُحَبُّ.. وتبْغضُ كلَّ مَا يُوجِبُ كَرَاهَته وَبُغْضُه.

– كمْ هِىَ جَمِيلة تعبيرَاتك تلكَ يَا حَبيبتِى..

كَمْ أنتِ رَقيقة.. أنتِ فَرَاشـة.. فرَاشـتِى أنا وَحْدِى.. فراشـتِى الَّتِى ستظَلُّ تحلِّقُ فِى سَـمَائِى أنَا وحْدِى، إلَى آخِر يوم فِى عُمرِى.

رددتُّ بتفكُر وتأمُّلٍ:

– فَرَاشة!!

– مَاذا؟ ألمْ يُعجبكِ التَّشبيه؟

– كلاَّ.. يَا حَبيبِي.. كيْفَ لاَ يُعجبنِي شيءٌ تقُولُه أنتَ.. فَأنَا يُعجبنِي كلُّ مَا تقولُه وكلُّ مَا تَفْعلُه وكلُّ مَا يُعْجبكَ.

– فلماذَا شَردتِ؟

– أفكرَ فِي اسـتِعارَةِ هَذِه التَّسـميةِ منكَ لأطلقهَا عَلى رَقْصتِي فِي حفلةِ الباليةِ القادمَة بالمدرسَة.. سَأطلقُ عليهَا رقصَة الفراشَة.. مَا رَأيكَ؟

– جميلٌ هُوَ ذاكَ، فكلُّ مَا تختَارينَه جميلٌ لِأنه يصدُر منكِ دونَ الأُخرياتِ يَا أشجَان.

***

وَجاءت الحفلةُ المدرسـيّةُ لمدرسةِ (الحرية)، وكانتْ أشـجَان عَرُوس الحفلِ رَاقصَة البَاليـة.. كالمعتَادِ كانتِ المشَـاجرَةُ بينَ أمهَـا وَدنيا (مرضعتهَا كمَـا عَلمْت) التِي أسْـفرَت عنْ حرْمَان دنيا مِنْ حضورِ الحَفْل، رغمَ أنَّ الأمَّ وَعَدت صَغيرتهَا بحضورِ دنيا مَعَهم، إلاَّ أنهَا حَالت دونَ ذلكَ سِرًّا وليسَ عَلانية. وَكالمعْتادِ أخفتْ دنيا هَذا الحوَار عَنْ أشـجان، حتىَّ لا تعكِّرَ صَفْوَهَـا، وفرحتَهَا بالحفلِ.

وخرَجَتْ أشجانُ وسطَ الفتياتِ فِى ردَاء الفراشَةِ لِتَرْقُصَ (رقصَةَ الفراشَــة) كانت لاَ تتحركُ ولا تجرِى بلْ تبدُو لكَ وكأنهَا تطيرُ كالفرَاشَــة، لمْ تكنْ أشجان هِىَ وحدهَـا التِى تدوُر رَاقصَة، بلْ كانتْ نظراتهَا أيضًا هِىَ الأُخْرى تدورُ، تتحركَ يمينًا وشِمالًا. بحْثًا عَنْ دنيا وسطَ أسرتهاَ فيملؤها الحزنُ لعدَم رُؤيتهَا.

كانتْ تدورُ كالعرائِس المتحرِّكةِ.. وَالأزمَات تدورُ برأسهَا، وأحـداثُ حياتهَا تحَلـقُ قبالتهَا. أخـذتْ تحلِّقُ، ترقصُ، بينمَـا عقلهَـا

حَائر يسـتعيدُ
حالةَ دنيا الحَزينة،
وحالـةَ أمهَـا الغَامِضَة
والسِّر الغامِض، بَل الجريمَة
المتوقعَة والتِى يتستَّران عليهَا
فيتحملُ كلٌ منهمَا الآخر، فهِىَ
كلُّ مَا يَجْمعهمَا، فلمْ يَرْبط بينهما إلا
شىءٌ وَاحدٌ.. هُوَ حُبُّهَا وإسْعَادهَا.

تمرُّ الذكرياتُ البعيـدةُ منذُ طفولتهَا، وكيفَ تقاومُ أمهَا وهَـى تجذبهَا مِنْ معْصمهَا لتخرجَهَا مِـنْ غُرفةِ دنيا أثناءَ مرضهَا وكيفَ تعاودهَا سـرًّا، كيف تنهرهَا دائمًا وتسـيءُ مُعَاملتهَا، وتكثرُ مِنْ إهَانتهَا إلاَّ إنهَا تتكلفُ المودَّةَ بمجَّرد رُؤيتها مُدَّعيةً الرحمَةَ.. إلاَّ أنَّ أشجان كانَ لا يفوتهَا ذلكَ، ودخولهَا عَلىَ أمهَا بغتةً لترَاهَا تغلقُ، وتُوصدُ دونهَا البابَ بأقصَى ما تسـتَطيعُ، لتحـولَ دونَ رؤيتهَا ملفًّا مُعينًا، وَقدْ أخفَتْ فِيه شـيئًا مَا. بالتأكيد ففِى الملفِّ شِيءٌ يتعلَّقُ بهَا وبهمَا أوْ سـرِّهمَا ذَلكَ. يومهَا فلتـتْ صُورتهَا ووقفَتْ دونَ مُلاَحظَتها تلكَ. إذْ لمَاذَا اضْطَربَتْ لرُؤْيتهَا؟ لمَاذَا أخفَتْ مَا تَحملهُ فِى الدُّرْج..؟ لمَاذا طوَت الورقةَ التِى كانتْ تنشـرهَا بينَ كَفيهَـا لتقرأهَا؟ لمَاذا تعيشُ دنيا وَحِيدةً بلاَ أهْلٍ؟ وَلاَ أقاربَ؟ ولماذَا تشعرُ أشجَان بحبهَا أكثر مِنْ أمهَا؟ بلْ وتشعرُ كثيرًا أنهَا أيضًا تبادلهَا هذَا الشعورَ لماذَا؟.. لمَاذا؟..

وَامتلأَت عيناهَا بالسُّحب القَاتمَـةِ.. فلمحَت أدهَمَ جَالسا مُبتسـمًا.. فابتَلعَت دُموعَهَا وَبَادلته الابتسامَ لتنْسَى كلَّ مَا فكَـرتْ فِيه. كانَ أدهمَ هُوَ الشـيءُ الوحيدُ فِى هذَا الوجودِ

الذِى يُخففُ عنهَا.. مجردُ رُؤيته تزيلُ همومَهَا.. دونَ عناءٍ أوْ مشقةٍ فِى ذَلك. يكفِى أنْ تَرَاه.. قَبالتهَا، بجانبهَا، لتنسَى كلَّ شىءٍ. وكلَّ مَا يُعَذبها.. فنظرَاته تحيلُ عذَابهَا وآلامهَا لجنَّةٍ وَارفَةِ الظَّلال.. تغسلُ همومَهَا.. ترطِّبُ حياتهَا. كانَ هو الـدفءُ الوحيدُ الذِى يلتفُّ فِى عَبَاءةٍ فيهَا ابتسـامتُه ليقيهَـا بردَ الأحدَاثِ الغامضةِ وقسْـوتهَا. وانتظرهَا أدهم، حَامِلًا باقةً منَ الورودِ الجميلةِ.. ليهنئهَا.

قالتْ لهَا دُنيا:

– بالطبعِ كنتِ عَرُوس الحَفْل.

– كنت فرَاشـة يا دنيا وكَمْ كانَ كلُّ شىءٍ جميلًا إلاَّ شىءٌ وَاحِد.

– مَا هَو يَا حَبيبتى؟

– وجودكِ مَعِى.. لماذَا دائمًا ينقُصُنِي وُجُودكِ؟ فِى أهمِّ المناسـباتِ وأجمَل الأشياءِ تَختَلقينَ الأَعْذارَ..! !هلْ حقًا أنتِ مريضَة؟ وتشـعرينَ بشـىءٍ مَا، جعلـكِ لا تحضرِينَ حَفْلتِى؟ فلَا تشاركينِى نَجَاحى.

اغرورقَتْ عيناهَا وهىَ تُجِيبهَا بصوتٍ تقطعُهُ العبراتُ:

– أنـا دائمًا معـكِ يا حبيبتِـى بقلبِـى وَعقْلِي.. ألاَ يكفيكِ هَذَا؟

قالتْ أشجان بحزنٍ :

– إلـى متَى نظلُّ هَكَـذاَ. إنِّى حَائرة بينكِ وبينَ أُمِّى؟ لمـاذَا لا تتَّفقَانِ وتعقـدانِ هدنةً مِنْ أَجْلـى أنَاَ؟ مَا الذِى يجعلكمَـا دائمًا عَلى غِيرِ وِفَاقٍ؟ ولمَاذا تغارُ منكِ كلَّ هذِه الغيرَة؟ إلىَ مَتَى يسـتمرُّ هذَا الوضـعُ الغريبُ بيننَا؟ إنَّكِ تُعطْيننى كلَّ شـىءٍ وَلاَ تَأخُذِينَ أىَّ شىءٍ.. حتىَّ وجودكِ بينَ الناسِ تُحْرمينَ مِنْهُ..!! لِمَاذاَ؟ مَا الذِى فَعَلتهِ وَاقترَفْتِهِ لتَجْنى كلَّ هَذَا؟

– كلُّ هذَا لَا يُؤْلِمنِى.

– لكنهُ يُؤْلمنِى أنَاَ.. فأنا بحاجَةٍ لوجُودُكِ مَعِي..

لكنْ..! لمَاذا تَفعلُ أمىَّ كلَّ هَذَا..؟

لماذَا تَحُولُ دونَ وجودكِ المسـتمرِّ مَعِـى لمَاذَا؟ لماذَا لاَ تُرِيحِيننى وَتقُولينَ لِى السـرَّ الغامِـضَ الذِى يَجْمعكمَا وَيضْطركمَا للعيشِ هَكَذَا؟

* * *

القرد كوكى وشجرة النيم

لَمْ يَعْثُـرَا عَلى القِرْد «كُوكـي» فَرَاحَا يبحثان عنه، فِي كلِّ مـكانٍ فِي البيتِ، وَفِي الحديقـةِ المحيطةِ بالبيتِ، إلَّا أنهمَا فشلاَ فِي العثورِ عَليه.

وَإذا بكُوكِي الصَّغير فِي الفيلَّا المجَاورةِ يتسـلَّلُ عـبرَ نافـذةِ المطبخِ متسـلقاً «المَواسير الخَلْفية» لمَخَـازنِ المياهِ.. لينقلَ عبرهَـا البطاطسَ والطماطمَ، الواحِدَة تلْوَ الأخرَى، فيمسِكُ واحدةً بيدٍ يَحتضنهَا، والأخرَى يَتَسـلَّقُ بهَـا عـبرَ «المواسـير» وَالنافذةِ، ثـم يقفزُ عبرَ الأشـجارِ، ثمَّ يتسـلَّقُ لمطبـخِ البيتِ ليضعَهَاَ عَلىَ مِنْضدةِ تجهيزِ الطعامِ فِي مطبخِ الأسْرَةِ.

دَخلتْ مُربيةُ البيتِ بغتةً، فوجَدت كُوكي قردَ الجيرانِ يسرقُ خُضْرَاواتهمْ وينقلُهَا لَهُم، فأمسكتهُ المربيةُ فراحَ يصرخُ صرخَاتٍ مُتَتَالية.

اندفعتِ الأم تثورُ غاضبةً لهَذهِ التصرُّفَات.

لمْ تُعِرْ أشجَانُ أىَّ اهتمام لهذهِ الثَّورة، حيثُ إنه لَا دَاعي لكلِّ هَذه الثَّورة وَالغَضبَ لما يَفْعلُهُ القردُ، وَجَلست مَعَ كُوكي تُلَاعبه وَتلاطِفُه فهِيَ رَقيقةً، وَديعَة، تخاطِبُ الأزهَار، تصادقُ الطيورَ، تحدِّثُ المَطَر.. كانتْ شَديدَة الإعجابِ والحبِّ بِهِ.. فهوَ يُمثلُ لهَا اللعبةَ المثيرةَ، الحيّة، التِى لمْ تبادلهَا الملاطفةَ واللَّعبَ فقطْ، بلْ والحُبَّ أيضًا.

فتحَت أشجَان الإنترنت بحثًا عَنْ أىِّ معلومَاتٍ عَنْ أنتينورى الإيطَالى وَسِيرته الذَّاتية.. وعندمَا وَصَلت إليهِ قرأتْ: «يبلغُ مِنَ العمرِ الثَّامنةَ بعدَ الخمسينَ. مُتزوجٌ ويعملُ معَ زوجتهِ فِى مُسْتشفى الاستنسَاخ والولَادة، يلقبُ «بأبو الأطفال المستحيلينَ». يعالجُ الحالات المُسْتعصيةِ للعقْم.. وذلكَ باستِخْدام وَسَائلهُ المنفردةُ فِى علاجِ العقمِ، وِسنَ اليأسِ وغيرهَا مِنَ الحالاتِ المُسْتعصِيَةِ».

– لهُ مُحَاولاتٌ فِي اسْتنسَـاخ البشَرِ، تسَّببَتْ فى تقديمهِ للمحَاكمةِ عِدّة مرّاتٍ، وأغلقَ الـمُسْتشْفييْنِ الخاصَّيْن به، بلْ وتمَّ طرْده مِنَ الجامعةِ الإيطاليةِ (سابينسا) وتعنِى الـمعْرِفَة.

شَعَرت أشجَان بالخذْلاَنِ أمامَ هَذهِ المعلومَاتِ التِي لمْ يكذبْ كلٌّ مِـنْ وَالديْهَا فِـى قولهَا.. فلمْ يلجَأْ إليْـهِ عَبَثًا ولهوًا.. واستعَادت ثقتهَا مِنْ جديدٍ بأمهَا.. وَصَدقت أقوالُهَا بعدَ أنْ ثبتَ عدمَ صحّةِ اتهامهَا وَإدانتهَا وَهواجسهَا الشيْطَانيّة.

* * *

ثُمَّ جلسَت أسفلَ الشجرَةِ التِي شَهدتْ عهودَهُمَا وأحَاديثَهُمَا وَحبهُمَا محَاطِينَ بالورودِ منْ كلِّ مكانٍ.. قائلةً:

– لماذَا يا أدهم عندمَا نصلُ ونجلسُ عندَ هذِه الشَّـجرةِ أشـعرُ بالراحَةِ لدرجَة أنىِّ أشـعرُ بأنَّ كلَّ شئ هُنَا نَقِىٌّ، جميـلٌ، بديعٌ.. حتَّى الهـواءَ هُنَا غَيـْـر مُلوَّثٍ، وكأنَّ كلَّ شـىءٍ مريحٍ وهادئٍ وجميـلٍ؟ دَاعَبَهَا قائلاً:

– أتعرفينَ لمَاذَا.

– طبعًا أعرفُ.

– أشكُّ فِي ذلكَ.

قالتْ بثقَةٍ: لكنْ ليسَ لدىَّ شـكٌّ فِي أنَّ حبكَ هُوَ الذى يُعطينِى هذَا الإحساسَ بالرَّاحةِ والهدُوءِ.

– ألمْ أقلْ لك إننِى أشُكُّ فِى معرفَتِكِ سببَ تلكَ الراحةِ.

بغضَبٍ تقولُ:

– أليكَ سَببَ آخَر غيرَ ذلكَ؟

– بالطبـع لدىَّ.. فهنَا يَا حبيبتِى.. وأشـارَ بيَده عَلى الشُّـجيْرَاتِ المحِيطَةِ بالحديقَةِ.. شُـجيرَات «النيم» هَذهِ الشـجيرَات هِىَ التِى تعطيكِ هَذا الهـدُوء وتلكَ الراحَة. لأنهَـا تمتـصُّ أولَ أكسـيد الكربُون والرصَاص وأكسـيد الهيدروجين مِنَ الهوَاء، بالإضافةِ إلى إنهَا تطردَ الحشرَاتَ الضَّارةَ مِثلَ الذبَابِ، والبعُوض وتقضِى عَليهمَا، وتستطيعُ امتصاصُ الغازَات الضَّارة مِنْ مَسَـافةٍ تتراوحُ بينَ ٣,٥ إلى ٥ أمتار، وتطردَ الحشرَاتِ عَلى مَسَافةٍ تبلغ ٢٠ مترًا. فهىَ تحاربُ التلـوُّثَ. قَالت وهىَ تحاولُ أنْ تمكرَ بِهِ مُتَظَاهرة بالثورةِ والغضَبِ:– وَأسفَاه..!! لقدْ ظننتُ حُبكِ هُوَ الَّذِى

يُعْطينِى هَذهِ الراحَة، وليسَت شُجَيْرات النَّيْم.

فأخرجَ حافظةَ أوراقٍ مِنْ حقيبتهِ المدرسيَّةِ وقالَ لهَا وهو يتكئُ بظهرِهِ عَلى جِذْعِ الشَّجَرة:

– اسمَعِى يَا حبيبتى هَذِه القَصِيدَة.

وراحَ أدهم يردِّدُ عليهَا بعضَ أبياتهِ الرَّقيقة..

كانَ يتحدَّثُ.. فتمسكُ الدنيا كلُّهَا مِنْ حولهَا عَنِ الكَلام، وتغمضُ عينيهَا لأقصَى مَا تستطيعُ.. وكأنهَا فِى سُباتٍ عَميقٍ، لحلمٍ جَميلٍ، لا تريدُ أنْ يُوقظهَا مِنْه أحَدٌ.

وَهكَذا.. كَانتِ الأيامُ تجْرى بِسُرعةٍ.. كالأمواجِ.. اليومُ يغالبهُ آخرُ فلاَ يشعرَانِ بالزَّمنِ.. لكنْ بقدرِ مَا نسعدُ فِى الحياةِ كانَ لابدَّ مِنْ دَفْعِ ضَريبةِ هَذهِ السَّعادة، وَكَأنه دَيْن، ولابدَّ مِنْ تَسْديده لَهَا فنحنُ عَلى الأرضِ.. مَازلنَا فوقَ الأرضِ.. وَلاَ توجدُ جَنَّة فوقَ هذهِ الأرضِ.. قَدْ نعيشُ بعضًا مِنَ الوقتِ فِى سَعَادة.. وَلكنْ..!! سرعَانَ مَا تعودُ الدنيَا، كعادتِهَا.. فَهِىَ دُنيا وأرضٌ وَحيَاةٌ.. وَكَبَدٌ.. وَخُلق الإنسانُ فيهَا ليكابِدَ، وَيصارعَ مِنْ أجْل الحَيَاة.

* * *

كبرتْ أشجَان.. وَكَبُرَ معهَا أدهم.. وَكبر الحبُّ بينهمَا، وكبر بينهمَا الحلـُم الجَميلُ، ولَمْ يكبرْ هَذا الحلمُ الصَّغير معهمَا وَحَسْـب.. وإنما كَبرت معهُ مَلامحُهَا، أعضاؤهَا، حَتىّ بدتْ تخَجَلُ مِنْ شكلهَا.

فجأةً..! أصبحَتْ تنمُو نمـوًّا غيرَ طَبيعى، ولا معهودَ مِنْ قبلُ، حتَّى باتتْ تختفي عَنِ العيونِ، وتتوارَى خَجَلًا، وحياءً مِنْ ضَخَامتها. واختفَتْ عَنِ العُيُونِ.

الملابسُ..! لا تستطيعُ استعمَالهَا.. فقدْ ضَاقَتْ عليهَا.

الأحْذيـةُ..! صَغُرت عليهَا، وكانـتْ حيَاكةُ الملابس الجديدة تجهدهَـا.. لقدْ أصبحَت كلُّ شـهرٍ تقريبًا تغَيِّرُ مَلابسها. وعندمَا بلغَ وَزْنُهَا خمسَة وتسعينَ كيلو جرامًا بدأتْ تطَيلُ الوقوفَ أمامَ المرْآة. لقد تبدلَت مَلامحُهَا..!!

الجميعُ يتهمونهَا بكثـرةِ الأكلِ.. ولم تعدْ بقادرةٍ عَلى الرقصِ فِي حَفَلات المدرسَةِ.. لَمْ تستَطِع الجَرْى.

أصبحَـت ثَقيلة..! وَرَغم ثقلهَا هَـذَا.. إلاَّ إنهَا كانتْ رَقيقة، هَادِئَة، وَديعَة. أصْبحَت بَدينَة..! لكنهَا.. كانتْ تعرفُ إلى درجَة الإجادةِ كيفَ تخفِى بَدَانتهَا البارزَة.. بلْ

تعــرفُ بمهارتهَا فِي اختيَارِ ثيابهَا، كيفَ تجعلُ منْ هذِه البدانَةِ شيئًا فَاتِنًا، تحسدَهَا عَليهِ أترابُهَا.

ورغمَ بدانتهَا تِلكَ، إلاَّ إنَّ وجههَا احتفظَ بتلكَ النَّضَارة والدعَة اللتيْن تَحتكرهمَا وجوهُ العذارَى وَالأطفالُ؛ وذلكَ لعدم إســرَافها فِي العبَثِ باستخْدام أدوَاتِ التجميلِ الحَدِيثة، كَمَا تُسْرِفُ فِي ذلكَ أترابُهَا.. فَظلّت رغمَ ضخامتهَا تحملُ وجهَ طفلــةٍ بريئةٍ رَقيقةِ المَلاَمح. لكنهَــا بدأتْ تبتعدُ عن زَميلاتهَا اللَّاتي كثيرًا مَا كنَّ يتضاحَكْنَ ويســخرْنَ منهَا. إنسانٌ واحدٌ. لَمْ تتغيرْ مُعَاملته لهَا.. لَمْ يسألهَا عَنْ أسبابِ تلكَ السِّــمْنة.. وَلاَ حتىَّ مُجرد التلميحِ بِأنهَا سَمِنت. كانَ يخافُ عَلى مشاعرهَا أكثر ممَّا يخافُ عَلىَ نفسِه. الجميعُ يتغامزُونَ، يتهامسُونَ، يتساءلونَ عمَّا أَصَابها، فِي شهورٍ معــدودةٍ بلغَ وزنُهَا وَحجمهَا هذَا القدرَ الهائلَ مِنَ الوزنِ.. كانَ شيئًا غريبًا غَير مألوفٍ.

جلسَ معهَا أدهم كَعَادته تحتَ الشجرةِ الكبيرةِ الضخمةِ التِي تشهد حبهما، وتظلهمَا بفروعهَا.

– أتسمعينَ يا حبيبتى قَصِيدة أبى القاسم الشابى؟

تأملتهُ أشجَان..!

لماذَا يسألها الجميعُ، ويقتحمونهَا، ويجرحونهَا وهو يبدُو غيرَ مُكترثٍ ببدانتهَا- سمْنتهَا- وَتغيُّرهَا وتحوُّلهَا، ومشكلتهَا. ربمَا كانَ مُتعمدًا تجاهُلَ مَا حلَّ بهَا، فمضَى يقولُ بحماس شديدٍ، قَصيدةَ إرَادة الحَيَاة:

إذَا الشَّعْبُ يومًا أَرَادَ الحَيَاةَ
فَلاَبدَّ أَنْ يَسْتجِيبَ القَدَر.
وَلاَبدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِي
وَلاَبُدَّ لِلْقَيْدِ أنْ يَنْكَسِر.
وَمَنْ لَمْ يُعَانِقْهُ شَوْقُ الحَيَاةِ
تبَخَّرَ فِي جَوِّهَا، وَاندَثَر.
إذَا مَا طَمَحْتُ إلَى غَايَةٍ
رَكِبْتُ المُنَى، وَنَسِيتُ الحَذر

لَمْ تعلق أشجَان عَلَى مَا قَاله مِنْ أشعَار.. وكيفَ تعلقُ عَلى كلِمَاته وهِيَ لَمْ تسمعْهَا بَعْد.. فقدْ كَانتْ شَاحِبةً وَاجِمةً مِنْ فرْط تجَاهلهِ لهَا. تلعْثمتْ وَهِيَ تَسْألهُ:

- أدهم لِمَاذَا تتجَاهلنِي؟ ألاَ يهمُّكَ أمرِي؟

– أنا..! أنا يَا أشجان أتجَاهلك؟ كيفَ تفكرينَ هَكَذا؟ كيفَ أهونُ عليكِ فَتَظْلمينَنى هَذَا الظلمَ البيِّنَ؟

– أدهم..! ألاَ تَرى أنَّ هناكَ تغييرًا قَدْ حدثَ لِى؟ أليسَ هناكَ مَا يُلفتُ وَلفتَ نظرَكَ وبصرَكَ بالفعْلِ لِمَا حَدثَ لِى؟!

– أشـجَان.. أنَا أُحبكِ أنـتِ طَويلة كنـتِ أمْ قَصيرة. سَمينـة أَوْ نَحِيفة، حُلوة أو غيرُ ذلكَ، فأنا أحبكِ أنتِ ولنْ أحبَّ سِوَاكِ وأراكِ جَميلة.. رَقيقة دائمًا. وَفِى كلِّ الأحوالِ، والأوضَاع، والأعمارِ.. أحبكِ فعيناىَ لاَ تبصرَانِ سِوَاكِ.

– لكننِى يا أدهم أشعرُ بأننِى مَريضَة.. فأنَا خَائفة، ليسَ مَا بِى هو السَّـمْنة.. لكنَّـه، تضخُّم. إننِى أخافُ– الآنَ– النظرَ فِى المِرْآة.

وكلَّ يـوم تُجْرَى عَلىّ التحَاليلُ والفحوصُ والاختباراتُ وَأرى الدهشَةَ، والتعجُّبَ فِى نظراتِ الأطباءِ دونَ جَدْوى.

وَانبعثتْ كلماتُهَا مُتقطعة وَهِىَ تقولُ:

– إنىِّ خَائفة يَا أدهم..خَائفة. أجْهَشتْ بالبكاءِ.

* * *

كانتِ الغيرةُ تملأُ زميلاَت أشَـجان مِنْ جمالهَا وفتنتهَا

وَرَشـاقتها وَرِقتها، فلمّا أصابهَا مَا أُصِيبت بِه مِنَ البدانةِ تبدَّلَ حقدهُنَّ وغِيرتهنَّ إلى سُخريةٍ وَشَماتة.

بـدأتْ أَشْـجان تُفكـرُ..!! هَلْ بـدأت مَعْركتهَا الآنَ معَ الحَيَاة؟ وكيفَ تسـتطيـعُ ذلكَ؟! وَهل فى وَسعهَا ترويضُ ذاتهَا عَلَـى مُقَابلةِ، مِثلِ هذِه الأمورِ وتحمُّلها مِنْ مقالبَ وَمَسَاخِرَ ستتعرضُ لهَا مِنَ الآن فَصَاعِدًا.. وَمِنَ حينٍ لآخَر؟

دخَلتْ أشـجَان إلـى البيـتِ. مَا بالُ هذَا الحزنُ الذِى يكسُـو مَلاَمحَهـم؟ مَاذَا بـهِم؟ بَلْ مـاذَا أَصَابهم؟ هَلْ مِنَ الممكـنِ أَنْ تتبـدلَ كلُّ الأمورِ هكذَا فَجْأةً؟ فِى المدرسَـة.. سُخرية! فِى البيتِ.. أحزَان!!

أبصرَتْ مِلفاً كُتبَ عليْهِ اسْمُهَا.. وَقعتْ منه صورةٌ بغتةً وَأُمهَـا تحَاولُ إخْفَاءَهُ عَنْ عيونهَـا. كانتْ صُورتهَا..وهِىَ بهذَا الشكلِ، والمنظرِ المفزعِ، السَّمينِ. ومكتوبًا عليهَا تاريخَ الستَّةِ أشهرٍ التِى رَاحت فيهَا تسمنُ وتتضخَّمُ حَتَّى بَلغتْ هَذَا الوزنَ الضخْمَ. وتقابلتْ نَظراتهمَا. نظرةُ أُمٍّ تُخْفِى سِرًّا مَجْهُولاً عنِ ابنتهَا الوَحِيدةِ، ونظرةُ شـكٍّ مِنَ ابنةٍ تبحثُ

عَنْ سِرِّ حياتِهَا، وأىُّ نجاةٍ تتعلَّقُ بهَا لتفكَّ بِه لغزَ حياتِهَا بَلْ وَسِرَّ أُسْرتِهَا.

فقالتْ لهَا أشجَانُ بذعْرٍ:

– إلَى مَنْ تُرسلينَ أحداثَ حَيَاتى؟ مَنْ تُخاطبينَ عَبْر الكمبيوتر ليتتبعَ كلَّ أَخْبارِى؟ مَنْ يَهمُّه أمرِى؟

وبسرعةٍ استطاعَت الأم أنْ تجدَ مخرجًا مِنْ هذَا المأزقِ فقالتْ:

– إنه أنتينورى يَا حبيبتِى.. أبعثُ لَه حَالتكِ ربمَا يجدُ علاجًا لكِ وتشفينَ فتعُودينَ مثلمَا كُنتِ.

– أنتينورى طبيبُ نساءٍ وولادةٍ وحالاَت عقمٍ، فمَا شَأنه بالهرمُوناتِ والغددِ والتضخُّمِ والسَّمْنة؟!

* * *

الأمومة الكاذبة

تلعْثَمَت.. لكنهَا أجَابت:

– هو يتابعُ جميـعَ حَالاتِ ولاَداتـهِ.. خَاصَّة اللاَّتي كُـنَّ يعانيْنَ مِنْ عُقم أوْ صُعوباتٍ في الولاَدةِ مثلَ حَالتِي.. وَيوُجهـهَا للمتخصِّصِينَ فِي الخَارج عَنْ طَريقِهِ.

كانـتْ أمهَا تكذبُ بَلْ أصبحَت بَارِعَةً فِي ممَارسـةِ شـتَّى فُنـونِ الكـذبِ.. وهذَا هُوَ الشـئُ الوحيـدُ الَّذِى لاَ يسـاورهَا فِيه شَـكٌّ.. وهذَا وَحـدهُ كانَ كفيلًا بتأكيدِ شكوكهَا وَظنونهَا.

فتلعثمهَا الدائمُ، واضطرابهَا المستمرُّ لا يدلانِ عَلى حَالةٍ مـنَ القلقِ والحـزنِ عليهَا. قدرَ مَا هُوَ دليـلٌ عَلىَ كذبهَا وإخفائهَا أمرًا مَا.

لكنْ يبدُو أنَّ شـكوكَهَا لمْ تنتهِ بَعْـد، بَلْ كَانت تنْدَثرُ تحتَ شـعَار: المجرمُ برئٌ حتَّى تثبتَ إدَانته. ورغمَ أنهَا كانتْ عَلى وشَكِ الاقترابِ والاقتناعِ مِنْ بَرَاءتها.. إلاَّ أنهَا الآنَ وَقَد تعرَّى سُباتهَا تشتعِلُ مِنْ جديدٍ ظنُونُهَا..!

كلا.. فلـمْ تعدْ ظنونًـا، بَلْ أصبَحت يقينًـا. وَتوالتْ صرخاتُهـا بعدَ أنْ عَجَزت عن السَّـيطرةِ عَمَّا بداخلهَا مِنْ قسوةٍ وَعُنْفٍ لِـهَذهِ الأُمِّ:

– لستِ أُمي.. لسْتِ أُمِّي..

وتركتهَا أشـجَان وخرجَت بعـدَ أنْ طعنتهَا كلماتُها، وراحَت تنزفُ وتسيلُ دِمَاءُ حبهَا.. وهَا هِيَ الآنَ، تحصدُ مَا غرستهُ إرضَاءً لغريزَةِ الأُمومَةِ.. بعدَ كلِّ مَا فعلتهُ تنهرهَا ابنتُهَا بكلماتٍ: لستِ أُمِّي.. لستِ أُمِّي..!

راحَتْ تترددُ على أُذنيهَا وتدوِّى برأسِـهَا، فتكادُ تصمُّ أذنيهَا. سَقَطتِ الأم كمدًا وحزنًا مِنْ تلكَ الصَّفعةِ القاسيةِ.. ولأولِ مرةٍ تبكِي بعدَ بكائهَا عَلى طفلتهَا الرَاحِلة.

كيفَ اسْـتطاعَت؟ بلْ كيفَ تجرَّأتْ بعدَ كلِّ مَا فَعلته مِـنْ أجلهَا؟ لكنْ لهَا المعذرةُ فِي كلِّ ذلكَ، فَهِيَ لاَ تعرفُ كَمْ أنفقاً مِنْ مبالغَ وتضحِيَاتٍ لإخراجهَا وَإعادتهَا للحياةِ مِـنْ جديدٍ، وَجَلسـتْ بمفردهَـا بعدَ أنْ أوْصَـدتْ عليهَا بابَ غرفتهَـا، دونَ الآخرينَ وفتَحتْ ملـفَّ صورهَا منذُ ميلادهـا.. وحتـىَّ هذِه اللَّطْمـة القويّة القاسِـيَة، كانَتِ

الدموعُ تتسابقُ عَلى وِجْنتيهَا، لقدْ فعلتْ كلَّ شيءٍ بَلْ وَقدَّمَت كلَّ مَا تَمْلكُ، لكنْ لمْ تستطِع السَّيْطرة عَلىَ قلبهَا، فهىَ لا تشعرُ بأُمومتهَا وبنوتهَا لهَا وكأنهَا تمثلُ دورًا ثقيلًا لاَ تستطيعُ إتْقانه، حَتىَّ تجرَّأت وَقالتْ لهَا عَلانيةً بَلْ سُفُورًا وتجاوُزًا.. لسْتِ أُمِّى.

وَأسْندت الأمُّ رأسهَا عَلى وِسَادةِ فراشهَا الوَثير، تفكرُ كيفَ وَقَدْ تحققَّتْ كلُّ أحلامِهَا.. شعرتْ أنه كَمَا يوجدُ مَا يُدْعى بالحمْلِ الكاذب، فَهناكَ أيضًا الأُمُومةَ الكَاذِبة. فهىَ كَالأمِّ الكَاذِبة، والحمْلُ الكاذبُ، بَلْ الأم الفاشِلَة، فلمْ يَسْتطع المَالُ أنْ يخضَعَ لَهَا طِفلتهَا وَقَدْ أعادتهَا للحَيَاةِ، لقدْ فَعَلت المُستحِيلَ.. عاشتْ حياتهَا تحتَ شعارٍ واحدٍ: وَهُوَ أنهُ لاَ يوجدُ شىءٌ اسْمهُ المسْتحِيل. كَلاَّ.. فالحبُّ هوُ المستحيلُ الوحيدُ الَّذِى وَاجهتْهُ فِى هَذهِ الدنيَا.. وحبُّ مَنْ..؟ طفلتهَا الوحِيدة..!

أَغْمضَت عينيهَا رغمَ السيلِ المُتدفق مِنْ عينيهَا حتَّى لاَ تَرَى خيبةَ آمالهَا.. وَنتِيجَة إصرَارهَا عَلى أَنْ تكونَ أُمًّا..

لقـدْ عَجزتْ بعدَ كلِّ مَـا فعَلتْ أنْ تنـالَ حبَّهَا، وتملكَ قلبهَا. فَشَلتْ فِي أنْ تكونَ أُمًّا.

* * *

اقـتربَ- القردُ الشَّـقِيُّ كُوكِـي- مِنْ أشْـجَان.. فهوَ صَديقهَـا الَّـذِي لَمْ يخرجْ مِـنْ غُرفتهَا، حيـثُ كانَ فِي انتظارهَـا كَالمُعْتادِ، وقفَ عَلى كتفهَـا، فجذبتهُ وَحملتهُ بحنَانٍ، ثمَّ جَلَسَـت عَلى مقعِد وثير تنظـرُ إليه بصمْتٍ، فراحَ يضعُ كَفَّهُ يتحسَّسُ وجههَا، فانهَالتْ دموعُهَا وَهِيَ تقول ودموعهَا تحشْرجُ صوتهَا وتقطعُ كَلماتِهَا:

- حتـىَّ أنتَ يَـا كوكي تشـعرُ بتغيـيرِي وتضخُّمِي فتتحسسُ وجْهِي غرَابة وَاندِهَاشًا.

فمسحَ دموعَهَا وَرَاحَ يقبلهَا وَكأنه يُوَاسيهَا، فضغطَتْ عليْهِ بذراعيْهَـا تَحْتضنُه وتنتحِبُ، وكانَ القـردُ كوكِي يمرُّ بكفِّهِ وأصَابعِه الدقيقةِ عَلى شعرهَا الكثيفِ مِنَ الخلفِ لتهْدئتهَا.

كمْ مِنَ الوقتِ مرَّ عليهَا وَهِيَ عَلىَ هَذِه الحَالةِ، سَاعَاتٌ طَويلَةٌ مضَـت دونَ اكتراثٍ منهَا. فراحَـتْ تُحَدثهُ قَائلةً بعزمٍ وإصْـرَار: كلَّا.. لا يجبُ الاستسْـلَامُ.. أليسَ كذلكَ يـا كُوكِي.. إنَّهُ مرضٌ، ولا شـكَّ فِي أنَّ لـكلِّ داءٍ دواءٌ،

ربمَا سَيطولُ الأمرُ، ولكن لكلِّ بدايَةٍ نهايَةٍ، وَمَا علينَا إلاَّ الصَّبر، ولنْ أتركَ المدرسةَ، أليس كذلكَ؟

راحَ كُوكِـى يُدَاعبهَا، وَكأنهُ يَفهمُ مَا تقولهُ، وكمْ كنتُ قاسيةً عَلى أمِّى، انفعلتْ أكثرَ ممَّا يجبُ وكانَ لزامًا عَلىَّ ألا أعَاملهَا هَكَذا، ولكننِى أشـعرُ بأنهَا ليستْ أُمِّى، فعلًا يَا كُوكِى، إنَّنى أشـعرُ بذلكَ، لكنَّ مُرْضِعتِى تلكَ الصَّغِيرة (دنيـا)، أشـعرُ بأمومتهَا وَحَنانهـا الَّذِى يُغَطـىِّ قلْبِى. إن قلْبِى يُحدثنِى بأنهَا أمىِّ وليسَـت مُرْضعتِى فقطْ، فَهِىَ أقربُ الناسِ إلىَّ وأقربُ إلىَّ مِنْ أمىِّ.

دقتْ دنيا عَلى البابِ للمرَّة الثَّالثةِ.. فقررَتْ أشـجان أَنْ تفتـحَ لهَا، وتبدُو طبيعيَّةً وكأنَّ شـيئًا لمْ يكُنْ، فهىَ مُصَابـة بمـرضٍ ما، حَتىَّ لـوْ كانَ غَيرَ معـروفٍ وَلكنه سَـيُعرف، قطعًا سَـيُعرف، وَسَـيَأتى الوقتُ لعلاجِهَا. ونهضَت مِـنَ الفراشِ بصُعُوبة وَتَعثُّـر.. فتحَتِ البابَ.. فكانتْ دُنيَا تحملُ بينَ يديهْا صينيَّةً كبيرَةً عليهَا أشْـهَى المأكولَات، فابتسمَت أشجَان وصَاح كوكِى مُهلِّلًا بأصَابعِ الموزِ المَوْجُودةِ فوقَ الصِّينيَّةِ.

جَلَسَت أشجَان إرضَاءً لدنيا الَّتِي هرمَت وَشَاخَتْ حُزْنًا عَلَيْهَـا، وَرَاحتْ تتظاهرُ بابتلاَعِ الطَّعام، وَتُخْفِى نظراتهَا المُتكسـرَة عنهَا حتىَّ لاَ تزيدهَا عذابًا وَحزنًا فوقَ عذابهَا. وَطَّدتْ أشجَان نفسهَا عَلى تَقبُّلِ تَلكَ النائبةِ، حَتىَّ يقضِىَ الله فِى أمرهَا، وَلكنْ..!! هَلْ ستنجحُ فِى مُوَاجهةِ الحياةِ بهَذَا الشَّـكل؟ هَلْ ستسـتطيعُ الاسـتمرَار فِى دراستهَا؟ هَلْ سَـتلتحِقُ بالجَامِعـةِ؟ هَلْ بمقدروهَا ارتـدَاء قناعٍ مِنَ البـلادَة وَالهدوءِ وعَدَم الاكترَاثِ واللَّامبالاَة؟ وَإلاَّ سـتَظلُّ تشـعُّ الكآبةُ حيثمَا تحلُّ وتهـلُّ.. وأينمَا تكونُ، لتتحولَ نظَرَاتُ الإعجابِ فيمَنْ حولهَا إلى شـفقةٍ وحزنٍ وعذابٍ. هلْ بوسعهَا التمثيلُ وإخفاءُ مَا بهَا؟

لقـدْ كان أكْثـرُ مَـا يميزهَا مِـنْ جمَالٍ هُـوَ فطرتهَا، صِدقهَـا، حُرِّيتهَا، فلمْ تقوَ يومًا عَلـى الإدعَاءِ أو النفَاقِ أو التَّمثيلِ! ولكنْ آنَ الأوانُ لتضحَكَ وهِىَ تبكِى وتَصْمت وقلبهَـا يَصْـرخ، فلابدَّ مِـنْ ردَاءٍ غيرِ هَذَا الـرِّدَاء. وَكَمَا تتغيرُ ملامحُهَا مِنْ حينٍ لآخرَ، فلتتغيرْ بدورهَا ملابسُـهَا لتليقَ وَتتـلاءمَ وحجمهَا المتزَايدُ بِاطرَادٍ، وَلابدَّ وَأنْ تتغيرَ

انفعالاتُهَا وإحساسها باليأْسِ والخوفِ والقَلَقِ، لابدَّ وأنْ تبدُو سعيدةً كعَادتهَا.

وإذَا كانَ بوسعهَا تحقيقُ كلِّ ذلكَ؟ فإلَى مَتَى؟ وَلمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ إلاَّ وَتظَاهَرتْ دنيَا بالنُّعاسِ، فجذبَتْ كُوكِى مِنْ ذِرَاعِه عَلَّه لا يُزْعجهَا، فَحملته أشجَان قائلةً:

– دَعِيه مَعِى، فهوَ يخففُ عَنىِّ كثيرًا وَيمْنَعُنى منَ التفكيرِ، اتركيهِ يرقدُ بجوَارِى اليومَ، فأنا بحَاجةٍ إليْه.

– ولستِ بحَاجةٍ لِى؟

– أنا دَائِمَة بحَاجةٍ إليكِ، فأنتِ أُمىِّ الصَّغيرةُ وصَديقتِى الوحيدةُ، وأرجوكِ لا تحزَنِى هكذَا لحَالتِى، فكلىِّ آمالٌ فِى العلاجِ وَكلُّ شىءٍ سيعودُ عَلىَ مَا يُرَام، فاطمئنِّى يَا أمىِّ الصَّغِيرَة طابَ مساؤكِ يَا حبيبتِى وَقُرة عَيْنِى. وَقَبَّلَتْهَا، وأَسْرعت للخروجِ وهِىَ تُخفِى دموعَهَا، فأعادتْهَا أشجَان إليهَا وَهِىَ تقول:

– لماذَا لاَ تنادِينِى بإش إش؟ مِنَ الآنَ فَصَاعدًا لا تنادِينِى سِوَى بـ إش إش، أرجوكِ. فهذَا يروقُ لِى كثيرًا.

– أجلْ يَا حَبِيبتِى.

- كَلَّا، أَجَل.. يَا إِشْ إِشْ.

- أَجَل يَا إش إش.

وَعَبثًا حَاولت أشــجَان النــومَ دونَ جَدوى.. كادَ القلقُ يأكلهَا، والفكرُ يلتهمهَا.

وكانتْ دنيا تتقلَّبُ فى فراشــهَا عَلــىَ جَمْر مِنَ الأَتُونِ المُسْــتعرِ، وهىَ ترَى قرّةَ عينهَا تَضِيــعُ منهَا هكذَا، وهِىَ مَكْتوفةَ اليديْنِ حَائِرة الفكرِ لا حولَ لهَا وَلا قوةَ إلاَّ بِاللهِ.

* * *

يجلسُ أدهم سَــاهراً، لم يغمــضْ لَه جفنٌ، وهوَ يبعثُ رسَــائلَ حالتهَــا إلى كبارِ أطباءِ العَالم، فَلــنْ يهدأَ لهُ بالٌ ويســتقرَّ لهُ فكرٌ إلاَّ بعدَ عِلَاجهَا، وكلهُ أملٌ فِى علاجهَا. ينتظرهَا ليقومَ كَعادَته بتوصِيلهَا للمَدْرسَة.

- أدهــم مَاذا بِــكَ؟ هَلْ آكلُ طعَامَك.. لتمسِــى نَحِيفًا شــاحبًا، وأصبحُ سَمينــة غَليظَة؟ مَاذَا أصَابــك؟ بلْ ماذَا دَهَاكَ؟ لماذَا تشحبُ هكذَا يومًا عَنْ يوم؟ أخشَى أَنْ تصبحَ قريبًا خَيَالًا وشــبحًا مُتحركًا فَلاَ أســتَطيعُ رُؤيتكَ إلاَّ مِنْ خلالَ صَوْتكَ؟

– لا تنشغلِى بأمرِى يَا أشجَان؟ فأَنَا عَلى مَا يُرَام، المهمُّ أنتِ.. أنتِ يَا حبِيبتِى.

ابتسمَت قَائلةً وهىَ تجاهِدُ وتصَارِعُ مِنْ أجلِ أنْ تَتَظَاهرَ بالابتِسَام: وَأنا أيضًا عَلىَ مَا يُرَام.. ألَا تصَدِّقنى؟!

وقـفَ زُملاءُ الفصلِ خلفَ البابِ لاَ يَقْوونَ عَلى فَتْحه، وحـاولَ البعضُ كَسْـره واقتحَامَه فذهـبَ أحدُهُم ليحضِرَ مطْرقةً أوْ أيةِ آلةٍ حَدِيديَّةٍ لفتْحِه، بينمَا اقتربَت أشـجَان مِنَ البابِ وَبضَغْطةٍ واحدةٍ مِنْ كتفهَا لَمْ يُفتَح البابُ فحَسبُ بـلْ خُلِعَ تمامًا مِنَ الجدَارِ، فأمسَـكت بِهِ وأسْـندتهُ عَلىَ الجِدَار. سَألتِ المعلمَةُ: – مَنْ خلعَ هَذَا البابَ؟

ضحِكَ الجميعُ وتفوَّهَ البعضُ يَقُولُ: «دبدُوبَة السمِينَة».

وَقفتْ أشجَانُ.. فبدَت طَوِيلَة جدًّا، أصبَحت أَطْول مَنْ فِى المدرسَةِ وأَعْرَضُهم وَأثقلهمْ وزنًا، وقالتْ بصُمُودٍ:

– أَنَا يَا أَبلة.

– لمَاذَا يَا أشجَان خلعْتِ البابَ هَكذَا؟

– أَنَـا لمْ أقصِدْ خَلعَه يَا أبلة، لكننِى أردتُ فتحَه فقطْ فلمْ يتحمَّلْ وخُلِعَ فى يدِى لضَعْفه.

ضحكَ الجميعُ. فاندفعَتْ أشـجَانُ كَالسَّهم مُنْطلقة بِسرْعَة مِنَ المدرسَـة تاركة أدَوَاتَهَا وَحَقيبتهَا.. ووصَلَتْ إلَى شـجرتهَا المُفَضّلـة وجَلَسـت بمفردهَا تبكي وتنتحِبُ ورَاحت الشـجرةُ تُظِلهَـا بفرُوعهَـا العَريضَة وَالمَليئة بـالأوراق الخضرَاء. كانتْ أوراقُهَا تحدثهَا.. لكنْ مَا بالهَا اليومَ لا تسمعُ صوتًا غيرَ صوتِ بكَائهاَ؟ لمْ يكنْ بوُسعهَا تحمُّلَ كُل هذَا الحمْل الثقيل وحدهَا. وَتمنّت لَوْ كانَ أدهم بجوارِهَا الآنَ لمسْح دموعِهَا ويخففَ عنهَا مـنْ وَطْأةِ تلكَ الأحداث التِى بَاتت تتعرَّضُ لهَا.. كانتْ أقوَى وَأشـد مِنَ احتمالهَا فلمْ تسـتطعْ أنْ تألفهَا أو تتبلّدَ تجَاهَهَا. وَلـمـاذا أدهم وَحْده الذى قُدر لهُ أنْ يحملَ معهَا هذَا العَذاب؟ لـمَاذا أدهم يكونُ نصِيبَهُ مِـنَ الدنيَا فتاةً مريضَة وَمُصَابة بعلّةٍ مِنَ العللِ المُسْتعصيةِ وَالتِى لا علاجَ لهَا حتىّ الآنَ وَلاَ أملَ فِيهِ؟ لماذا تعذبهُ بوجودِهَا وَرُؤْيتهَا هَكَذا عَلىَ هَذَا الحَال؟

رفضَت أشـجانُ الخُروج منَ البيـتِ للتحاليلِ والفحْص والكشـفِ. ورفَضَت كلَّ شيءٍ وَقَررت عدمَ العودةِ للمدرسَة. وازْدَادت حَالتُهَا سُوءًا. فَراحَت تتوَرمُ وتتضخّم بمرورِ الوقتِ.. وَفَشلتْ مُحَاولات أدهم المُسْتمرّة فِى مُقَابلتِها وَرُؤْيتهَا.

فجأةً حُرِم منهَا دونَ سابقِ إنذار.

كيفَ يستَطِيعُ ذلكَ؟! وقَدْ كانَ لا يمرُّ عليهِ يومٌ دونَ رُؤْياها؟ فَلَمْ يوطِّنْ نفسَه عَلَى ذلكَ..!

كيفَ هانَ عليهَا حِرْمانه منهَا وَهِيَ تعرفُ قدرَ حُبه لهَا؟ كانتْ لا تمرُّ ساعةٌ مِنَ الزمنِ إلاَّ ويسألُ عنهاَ أو يمرُّ ببيتهَا طمعًا فى رُؤْيتهَا.

لكنْ باءتْ كلُّ مُحَاولاتهِ بالفشَل. كانتْ كلَّ يوم تزدادُ وزنًا وطولاً وعرضًا..! فِى أشهرٍ قليلةٍ أَصْبحت تبلُغُ منَ الطولِ متريْنِ ونصفَ المترِ. وتبلُغُ مِنَ الوزنِ مَا يقربُ مِنْ مائتيْنِ وخمسينَ كيلوُ جرامًا.

فَجْأةً أصبحَت تنمُو نموًّا غَيْرَ طَبيعى لَمْ يُعْهَدْ مِنْ قبلُ.. حتَّى بَاتت تَخْتفِى عَنِ العيونِ، لتتوارَى خجَلاً وَحَياءً مَنْ ضَخَامتهَا.. واختفتْ عَنِ العُيوُن.

وجاءتْ معركةُ الأُمِّ ضحية مِنْ جديدٍ، وَقدْ ظَنَّتْ - وَبَاطلاً ظَنَّتِ- أَنَّ الحياةَ تركتهَا وشأنهَا لتنعمَ بكلِّ هذَا النعيم دونَ رقيبٍ أوْ عتيدٍ منْ زَبَانية الدنيَا وأعدائهَا.

بَعدَ كلِّ مَا قدمته لهَا منْ عَطَاءات وَمِنَح.. وَآن الأوانُ لتسديدِ ضريبَةِ مَا سَلَبت.. لتجرِى خلفَ الأطباءِ فِى كلِّ مكانٍ، يمينًا وشمالاً، بحثًا عنْ طريقةٍ لوقْفِ هَذَا النُمو.

أفزعَها تصريحُ الأطباءِ بأنَّ هناكَ خَللًا جِينيًا وِرَاثيًّا فِى هُرمون النُمو، وأنَّ هذَا الاضطرَابَ الهرمُونِى سيستمرُّ حَتَّى المَوْت، وستتضَخمُ الفتاةُ لكنهَا لنْ تعيشَ طَويلًا ثمُّ توَالتِ اللطمَاتُ الواحدةُ تلوَ الأخْرَى.

* * *

وفجأةً..!

فتحَت الأم البابَ لتتسلَّمَ مُذكرة بحكم قَضَائى.. نظرتْ عيناهَا تقرأُ هذَا الحكمَ فَصَرخَتْ صرخةً مُدويةً أفزعَت كلَّ مَنْ فِى البيتِ وصَرَخت بفزعٍ وَهِىَ تقولُ:

مُسْتحيل.. مُسْتحيل..!

حكَمت المحْكمةُ بمصَادرةِ أشجَان، لعرفةِ أسبابِ تَضَخمهَا ووضعهَا تحتَ الحِرَاسة والعنايةِ المُركَّزة حفاظًا عَلىَ سَلامتها وضمهَا تحتَ رعايةِ الإشرافِ الطِّبى للحَالاتِ المُسْتعصيةِ والشَّاذة أوْ غيرِ المألوفَة.

جاءهَا الحكمُ بمُصادرةِ الطِّفلةِ المُسْتحيلةِ. ووضعهَا تحتَ العنَايةِ الطبيةِ والفحْصِ المسْتَمر.

ونُزعَت أشجَان بقوةِ القَانُونِ لإجرَاءِ التجَاربِ عليهَا وَهَيْأَ المسْتشفَى المكانَ الملائمَ لهذه الطِّفلةِ الضَّخْمة غيرِ الطبيعيَّةِ والتِى يبلغَ طولُهَا ثلاثة أمتارٍ وَتزِنُ ثلاثمائة كيلُو جرام وحبسُوهَا فِى رَدْهةٍ وَاسِعَة.

أجَلْ..! كانَ جناحًا وارفًا ترفًا بالغَ العنايةِ إلاَّ أنه كانَ بمثَابةِ زِنْزَانة.. ضاقَتْ عليهَا الدنيَا وَإِنْ رحُبت. فقدْ كانتْ تشعرُ رغمَ اتساعِ الجنَاحِ الَّذى تُقيم فيهِ بضيقٍ وَأَنَّهُ سيطْبقُ عَليْهَا.

وكانَ أدهم رَغم أنه طَليقٌ فِى الدنيَا إلاَّ أَنَّهُ حَبيس. يشعرُ أَنَّ الدنيَا قبرٌ بمَا وَسِعتْ لعدمِ وُجودهَا مَعَهُ. فلمْ يعدْ يتذوقُ فيهَا أىَّ شىءٍ.

حبسوهَا كالحيوَان..! كَالوَحْشِ الضَّارِى..! فهمْ يتوقَّعُونَ أنهَا سَتتوحَّشُ وسيصعبُ السيطرةُ عليهَا.

وتبدلَ كلُّ شىءٍ..

شكلهَا الجَميل.. ملامحهَا الدقيقَة.. أخذَت فِى الغِلْظة.. أصبحَت مُخِيفة، مُرْعبة، يظنهَا الرَّائِى غُولًا مُتَوحشًا مِنْ صُنعِ الخيالِ. حيوانًا مِنْ حَيوَاناتِ الأَسَاطيرِ المُوحِشة..! فَـكلّ ما فِيهَا تحوّل، وتبدّل، وَتَغّير إلاّ قلبُهَا.. قلبُهَا..! الذِى ظلّ وحْده يُعَانِى مَأسَاةً مِنْ صُنعِ الآخَرِينَ.

* * *

obeikandl.com

أكبر حيوان تجارب فى العالم ..!

ظلّتْ حَبيسةَ زِنْزَانة، ضخْمةٍ.. كالوحْشِ المُفتَرِس..!

رَهينةُ الحيَاة..! تتمنَّى.. حيْثُ لا يُجْدِى التمنِّى.. الخروجَ مِن سجْنِ الحياةِ، وهلْ لهَا مِنْ سبيلٍ فِى ذلكَ؟ وماذَا تفعَلُ؟ وَقدْ ظنَّت أنهَا أفلتت مِنْ ظُلمةِ الرحِم إلى ظُلمة الحَيَاة! أصبَحَتْ وَحِيدةً.. كلُّ يوم يَأْتى غُربَاء.. زُوّار.. علمَاء.. صَحفيون.. مُذيعون.. مُصَوِّرونَ.. منْ كافةِ أنحَاءِ العَالم.. لكنهَا تَرْفضُ.. تأبىَ.. تَصْمتُ. وَرغم ذلكَ يجبرونهَا عَلَى اللقاءَاتِ يُطَعمونهَا بالعَقاقير.. الجميعُ أتَى هُنَا لفحْصهَا.

أصْبحَت فُرْجة.. يتطلعُ إليهَا الآخرونُ بهلع وفزَع وفضُولٍ.. وكانتْ أخبارُهَا لدَى أدهم تَزيدُه عَذابًا فوقَ عَذابه. لم يكنْ قدرًا وَحسْب.. بلْ كانَ الجحيمُ بَعيْنهِ، الغريبُ انّهُم يُطلقونَ عليهَا (البنْت المتوحِّشة) كانَ قلبهُ ينفطرُ تمزقًا، وَاحْتراقًا عندَ قِراءته أخبارهَا تلكَ وَمَا يذاعُ عنهَا، ويشاعُ.

تركَ هو الآخرُ مَدْرسته.

تدخُلُ أمهُ غُرْفته فتقولُ له:

– إلى متَى يَا بنى سَـتظلُّ عَلى هَذه الحَالَة؟ لقد أهملْت دروسَك ومدرسَتكَ، وترفضُ الطعامَ زاهدًا فِى كلِّ شىء وتجلِسْ بمفـردكَ إمّا ذاهبًا، حيثُ لا أدرِى وإمّا جالسًـا تبحثُ عنْ عناوينَ لأطباءٍ مَجْهُولينَ.. مَتَى تفيقُ مِنْ هذيانكَ هَذَا؟

يُخْفِى أدهم وَجْهه عَنهَا وهوَ يحدثهَا وَيُخْفِى الصحفَ العديـدةَ وصورهَا المفْزِعَةَ التـى تتصدرهَا عَنْ ناظرِىْ أُمِّه فتقولُ لهُ بشفقَةٍ وعطْفٍ:

– يَا بُنَىَّ هَذَا أمرُ اللهِ..

يجـبُ ألا نفقدكمَا فِـى وقتٍ واحـدٍ.. وكفانَا فجيعَة وَمُصيبة وَاحِدة فِى أشجَان.. فَنَجِّ نفسَكَ مِنْ هذِه الظُّلْمةِ.. وعُدْ إلىَ حَالتكَ الطَّبيعيّة، عَسَى اللهُ أنْ يشفيهَا، فتجدكَ قويًّا.. صَلْبًا، لا هزِيلًا ضَعيفًا، فَاشِلًا؟

– كَلاَّ يَـا أُمىّ.. لنْ أسـتطيعَ.. فنحـنُ روحُ واحدةٌ فِى جَسَديْنِ.. وَإذا حَدثَ لهَا أىُّ مكروهٍ فَلابدّ أنَا الآخرُ مُلاقيه.. وَدَعينِى وَشأْنِى، فلمْ يعدْ لى فِى الدنيَا شىءٌ بعدهَا.

* * *

يجلسُ أدهـم وَحْده تحـتَ ظلالِ شـجرتهمَا الوَارفةِ الظِّلال التِى يشـكو إليهَا حَاجتَـهُ، وراحَ يتذكَّرُ أولَ مرةٍ حينَ التقتْ أشجَان بِهِ، وقتهَا ملأهُ الإحسَاسُ بزلزَالٍ يهزُّ الأرضَ مِنْ تحْتِ قدميْهِ.

لكن..!

مُسـتحيلٌ ألاَّ يكونَ لمرضهَا دَوَاء. فَلَـم يخلقِ الله داءً إلاَّ وخلـَق لهُ دَوَاء. وَالله يعلـُم كَمْ أنا بحَاجةٍ إليهَا.. وكَمْ سيشـفقُ بِى ويرحمنِى ويعيدهَا إلىّ. فأنَا بدونهَا لسـتُ شـيئًا، أىُّ شىءٍ. وكانتْ قسـوةُ الحرمَان منهَا وَشدّ الألم والحـزنِ منَ التفكيرِ فِـى المَصِير الحتمِى الَّـذِى ينتظرُهُ بدونهَا، يَجْعله يأملُ ويتعلقُ بأذيَاله أشـدَّ التَّعلق. فالأملُ هوَ المعينُ الوحيدُ لكشـفِ البلْـوَى، وَنوائبِ الدهرِ التِى تُصِيبنَا. واسـتمرَّ عَزْمه، ومُحَاولاتـه المُتعثرةُ فِى لقائهَا، لا يكِلُّ. لا يَهْدأ، لا يَستريحُ. فلنْ تهدأ حَالتُهُ إلا برؤيَاهَا. مَا أصْعبَ ما هُوَ فيه..!

لقـد جاءَ الوقتُ الَّذِى يتمنىَّ فيهِ لـوْ ينعمُ الله عليهِ برؤْيتهَـا، مُجردُ رُؤْيتهَا.. فمجـردُ رُؤْيتهَا أصبحَ حُلما

مِـنَ أحلامِه.. بَل الحُلم الوحيدُ الـذِى بَات يُصَلىّ مِنْ أجْله.

كيـفَ حدثَ كلُّ ذلكَ وَهُوَ رَفيـقُ حياتهَا الذِى لمْ يمرُّ يومٌ فِـى حَيَاته إلاّ وكانَ يرَاهَا فيهِ.. ليصبحَ مِنَ العسـيرِ عليـهِ الآنَ أنْ يجدَ سـبيلًا إليهَا. وَلكنه حتمًا سَـيرَاها.. فرحمةُ اللهِ بحَالته، سـتتيحُ لهُ فُرصَة لِقائهَا، ليعيدَ إليهِ روحَة وحَيَاته مِنْ جَديد.

* * *

أفزعَـة منظرهَـا ورؤيتهَا فِى التليفزْيـون وهى تغمضُ عينيهَا.. رَأى شكلهَا وراحَ قلبهُ يرتجفُ وهو يسمعُ أنباءهَا بالتفصيلِ.. الطفلةُ المُسْتحيلة.. تتحولُ إلِى كائنٍ مُتوحِّشٍ مِنَ الصعبِ ترْويضُه.

البنتُ المتوَحشَـةُ.. ترفضُ الطعامَ، وتمتنعُ عن الكلام. وَلاَ تنظرُ إلىَ أحدٍ.. وكانَ بوسعهَا لوْ تستطيعُ أن تَمْتنِعَ عن الحياةِ كلِّهَا، بكلِّ مَا فيهَا، مَا تَرَددت لَحْظَةً واحدةً فِى ذلكَ.

ظلتْ أشـجَان حَبيسـة تلـكَ الزنزَانـة.. المُكيفة، الهَائلة، رغمَ أنَّ كلَّ مَا فيهَا وَثيرٌ إلاَّ أنه سـجْن. لاَ تعرفُ

قدرَ ضخامتهَا وهولهَا.. إلا بدخولِ الآخرينَ عليهَا. هلْ هيَ سجينة الجسَد.. أمْ سجينةُ تلكَ الجَدرَان؟ فلاَ نافذةَ تطلُ منهَا عَلى الحياةِ وَلاَ تليفزيون وَلا راديو وَلا صُحف وَلاَ كُتب. زِنزانة هِيَ.. ولا ريبَ فِي ذلكَ حبيسَة الجدرَانِ الأربعَة.

علَى أيَّ ذنب تُعَاقب لتُلْقَى فِي الجَحيم..؟ هَلْ انتقلتْ للآخرةِ دونَ أنْ تدرِى؟ ربمَا حدثَ ذلكَ.. لمَ لاَ.. لكنهَا لمْ تمتْ بعدَ ولمْ تبعثْ مِنْ جَديد..! كَلاَّ.. فمَا حدثَ هوَ أنهَا بالفعلِ فِي عالم آخرَ غيرَ ذاكَ العَالمِ الذِى عَرفته..!

عَالمٌ.. لاَ رحمَةَ فِيهِ، وَلاَ إنسَانية.

هُوَ الجحيمُ بعيْنِه.. لكنْ..! عَلىَ أيِّ ذنب تُعاقَب.. مثْل هذَا العقاب؟ ظلّت حبيسةً كالوحْشِ الضَارِى، المفترسِ الذِى يُطمعونهُ فِي أوقاتٍ مُحَددة.. رهينة الحياةِ وتتمنَّى حَيْثُ لاَ يُجدى التمنىّ.. الخروجَ مِنْ سجْن الحياةِ وهلَ لهَا مِن سبيلٍ فِي ذلكَ؟

لقد جاءَ الحُكْم عليهَا وحدهَا. الحكمُ عليهَا بالحياة دونَ استئنافٍ أوْ نقْضٍ .. حكْمًا قاسيًا.. فتاةٌ محكومٌ عليهَا بالحيَاة!

كَمْ كانَ حكمًا قاسـيًا لا رادَّ لهُ ولا مُعين!! مَا أصعبَ هـذَا الحكمَ وقدْ تَمَّ تنفيذُه..! أصْبَحت وَحيدة.. فِي عالم بلا رَحْمةٍ. عَالم تحْكمهُ القوةُ وَلا سُـلطانَ للإنسانيةِ عَليْه. كلُّ يوم يَأتِي غُرَبَاء.

زوَّارٌ مُختلفـون مِـنْ أنحـاءِ العالم كَافّـة.. ووجودهَا إجبـاريٍ في لقاءَاتهمْ رغمَ صَمْتهـا وعزُوفهَا عَنِ الجميع إلاَّ أنهَا مَحَلَّ الأنظَار.

الجميعُ يتطلعُ إليهَا بلاَ رحمَة.. يُجرِّدونهَا من ثيابهَا بلاَ خَجَـل، وَلاَ رحْمـة، أصبحَتْ فرجَة.. يسـتبيحهَا الآخرونَ.. ويتطلعونَ إليهَا فِي جُرْأة، وقسـوةٍ وَبشَـاعة، بلاَ اسْتحيَاء.. تارةً بدَهْشةٍ وَفَزَع، وَأخرَى بفضُولٍ وتطفُّل غيرَ مُكْترثينَ بعَدَم رَغبتهَا فِي وُجُودهم.

ولكنْ ماذَا تفعلُ وقدْ حبسُـوهَا فِي غرفةٍ واسعَة يرتفعُ سـقفهَا بعيـدًا وكأنكَ تقـفُ فِي رَدْهةِ بيـتٍ منْ بيوتِ الخَيَال، وكانَ فراشـهَا كبيرًا ليناسـبَ جسدَهَا وَطُولها وضَخَامتهَا، وكانَ بابُ الغرفةِ الواسـعَة حَديديًّا ليصْعبَ عليهَا فَتْحَة.

كأنَّ المبنى بأكمله بُنى منْ أجلهَا دونَ سائرِ المخلوقاتِ، لكىْ يتلاءمَ وحَالتها وَحسْب.

وهذِه الغرفةُ كانتْ بمثابةِ جناحٍ فُندقى، به كَافة احْتياجَاتهَا. وَمُستلزماتهَا، لكنهُ عظيمُ التكوينِ والشىءُ الوحيدُ الذى يُعْوزه هُوَ المرآة فقدِ انعدَمت بِهِ أيةُ مرَايَا فكانتْ أشجان تتحسّسُ وجهَهَا وملامحهَا الغليظَةَ وتطيلُ النظرَ إلى أصَابعها. لقدْ أصبحَ كلُّ مَا فِيهَا غليظًا، مُخيفًا، مُرعبًا، مفزعًا.

كَمْ أوحشهَا أدهم. كلّا لنْ تَراه.

ودنيا الرقيقَة الوَديعَة أيضًا لنْ تراهَا، فليسَ بوسعهَا رُؤية هذَا الحبَّ الكَبير الذى يحملاَنه لهَا يتحوّلُ ويتبدّلُ لشفقةٍ وَحزْن وَعَذاب. ليسَ بوسعهَا رُؤية عَيْنى أدهم وهمَا تتحوّلان من الأمَلِ إلىَ اليأسِ والوداع وَالكآبةِ، ومن القوةِ للذلّ والهوَان. وَكمْ حاولَ الأطباءُ إقناعهَا بضرُورَة الاستمرَار فِى تناولِ الطعَام حَتىً يتسنَّى لهُم علاجهَا دُونَ جَدْوى. حَاولوُا إجبارهَا على ذلكَ أيضًا وَذهبت مُحاولاتهم هُبَاءً وعَبثًا لا طَائلَ مِنْهُ. فاجتمعَت إدارةُ المستشفىَ وَقررُوا إجبارهَا عَلى الطعام بالمحَاليلِ بعدَ تخديرهَا.

مَـا أعجبَ مَـا يحدثُ لهَـا حَتى الرفـضِ والامتناعِ لمْ يصبحَـا مَنْ حقهَا، فلمَاذا تَعِيـشُ إذَنْ؟ أَصْبحتْ كَفَأْرِ المعْمَـلِ فِي أيـدِي الباحثينَ والعلمَاء يحبسـونهَا لإجرَاء التجاربِ العِلميّةِ عليهَا فتارَة يَحْقنونهَا بمحَاليلَ وَعقاقيرَ وَأُخـرى يعلقونَ تلكَ المحَاليـل لِتتناوَلَهَا رغما عنهَا بعدَ تخدِيرهَا.

كانـتْ تعرفُ وجـوهَ الزائريـنَ منذُ لحظـةِ وُجُودهم وَتَوَافدهمْ عليهَا، لاخْتِلافِ أداءِ الوظَائفِ والمهمَّاتِ الَّتِي يُكلَّفـونَ بَهَا .. فهؤلاءِ الزبَانيـة للتخدِير وَهؤُلاءِ للحقْن، وآخرونَ للتغذيةِ وَتعْليقِ المَحَاليل.

عِلاوة عَلىَ المقاييس التِي يَأخذونَهَا لهَا الطُول، والوَزْن والعَرْض والصُور التِي يلتقطُونَهَا لَهَا.

كلُ شـيءٍ مُحَددٌ بالمواعيدِ والسَّـاعَات، ومَحْسُوبٌ بدقَّـةٍ وعنَايـة فائقةٍ، وَكلُ ذلكَ مِنْ أجْـل الحفاظِ عَلَى حيَـاةِ أكبرَ حيوَانٍ مَعْملى عَرفـهُ العالمُ حتىَّ الآن. كانَ الحرصُ عَليهَا شـديدًا فحالتهَا لاَ تشغَلُ مصْرَ وحدهَا. بَلْ وتشغلُ العالمَ كلَّهُ.

وكلُّ يــوم يمــرُّ .. يَفدُ إليهَا علماءٌ منَ الشــرقِ والغَرْب لتمتَلىءَ ساحةُ الرَّدهَة الوَثيرةِ الوَاسعةِ بالعديدِ مِنَ الصَّحَفِيينَ وَالمذيعيــنَ وَالمصوّرينَ والعلمَاءَ مِــنْ مختلفِ أنحاءِ العالمِ وبمختلفِ اللغاتِ يتحَدثونَ، يتعجَّبونَ، يَتَنَاقشونَ.

لكنهَــا الوحيدةُ بينَهُم التِى لاَ تتحدث.. فَهىَ لا تملكُ الآن شــيئًا سِــوَى الصَّمْت. الصّمت، الذِى أصبحَ يُرِيحها مِنْ كلِّ هؤلاءِ وَهــىَ تَرى فِى وُجُوهَهم ونظرَاتهم الفضُول. وَالعبَث، غيرُ مُكترثينَ بمشــاعِرهَا وَحَالتها الإنسَانية بمَا يفعَلونهُ بهَا منْ تجاربَ وَفحُوص وَصبغَات وَغيرِ ذَلكَ.

المُهِم..!!!

هُوَ أنْ يصلُوا إلى غَايتهمْ وُيحَققوا طُمُوحَاتهم بالحصُول عَلَــى نتائــجَ جَديدَة مهْمَا كَانــتْ تلكَ النّتائــج .. المهمُّ هُــوَ أنه هنَــا توجدُ نَتَائج مَا. بالقطع أيــةَ نتائِجَ وأبحَاث جَدِيــدِة تعدُّ نجاحــا لهَمْ، وَهذَا هُوَ كلُّ مَا يشــغلُهُم غيرَ مُكترثينَ أوْ مُعِيرينَ أدنىَ اهتمَام بالتفكيرِ- ولوْ قليلًا- فِى تلكَ الكائناتِ التِى يســتخدمُونهَا فِــى تجَارِبهم كالفئرَانِ والأرَانب وَالحَشرات.

وَتسَاءَلتُ:

تُرَى هَلْ تشعرُ حيوَانَاتُ التجارب بمثلِ مَا تشعرُ به الآنَ مِنْ مُعَاناة وقهرٍ وَعَذاب؟ أجلْ..! فَهِيَ لاَ تزيدُ عَنْهُم شأنًا الآن. ومنَ الطَّبيعِي أنْ تشعَر بشعُورِهم الآن فقَط. وَحُبِسَت عــنِ العالــم لتُجرَى عَليهَا التجَــارب دونَ رغبةٍ منهَا فِى ذلكَ. كرهًا وَقسرًا وعمدًا.

ولأولِ مرةٍ فِى حَياتها تشعرَ بالكرَاهية. وقَدْ كانتْ تظنُّ أنَّ قلبهَــا ليــسَ فيهِ مَكَانٌ لكَرَاهية شــيءٍ مَــا.. فإذا بهَا تتحَوّلُ، تتغَيَّرُ، تتبدّلُ الآنَ.

وَلمَ لاَ..!!

وقدَ تبدّلَ كلُّ شــيءٍ حَولهَا بتبــدُّلِ ملَامحهَا. فتبدَّلَ مُحِيطُهَــا وَعَالمُهَــا وأصْبَحَت تعاملُ مُعاملــةَ حيوانَاتِ التجَارُب. وَلَمْ يســتطعْ أحــدٌ مُوَاجهة وَرَفْض هذَا الحُكمِ الَّذِى فُرِضَ عَليْهم دُونَ أنْ يَعْرِفُوا شيئًا عَنْهُ.

كانَ الحــارسُ ينظــرُ إليهَا بخوفٍ، فهــىَ فِى رَأْيهم مُتَوحشــةً لغِلْظةِ هَيئتهَا ومنظرهَا ولكنهَا هَمَســتْ إليْهِ.. هكذَا خيلَ إليهَا أنهَا تهمسُ:

– اقتربْ مِنِّى.. اقتربْ وَلاَ تخفْ.. أريدُ أنْ أسألكَ شيئًا.

اتسعَتْ حَدَقتا عَينيهِ بنظرَةٍ يملؤُهَا الريبُ والشكُ مِنْهَا، كررتْ عَلى سَمْعِهِ.

– اقتربْ، باللهِ.. لا تخفْ مِنِّى، إنى أُريدُ رؤْيَةَ دنيا.

فاقتربَ منهَا بحِرْصٍ.

* * *

كانَ أدهم يَهْذِى باسمهَا هذيَانًا لَمْ يَرَه أحدٌ مِنْ قبلُ.. يبدُو كشبحٍ مِنْ أشباحِ الظَّلام غَير المَرْئية، يمرُّ بحَيِّهَا، يطوفُ بمجلَسهمَا القديمِ، عندَ شجرةِ حبهمَا، كعابرِ سَبيلٍ..!

تراهُ سقيمًا، يَجرُّ سَاقية جَرًّا. وكأنَّ العشقَ الذِى أنزلهُ اللهُ على سَمَاءِ الدنيَا وأَرْضهَا.. كانَ لِزامًا عَليْهِ حَمْله وحْده.

عندمَا بلغهَا أمرُ أدهم وَتغيُّر أحْوَاله، وَتبدُّله، وَهذيَانه بترانيمَ كَرْبه شعرًا عَنْ طريقِ الحَارس، سَمَحت لهُ، فهوَ كلَّ يوم يأتِى لمقابلتهَا ليعودَ حزينًا وَحيدًا، لكنهُ لَمْ يَكل، أوْ يتعَبْ، أوْ يتوقَّفْ عَنْ مُحَاولاته فِى الإلحاحِ لرؤيَاهَا.. حتى أذنتْ بمقَابلته.

وعندمَا بلغَ أدهم ذلكَ الخَبَر شعرَ أنَّ الدنيَا أضيقُ مِنْ أنْ تتسعَ لسعَادته، كانَ موعدُه معهَا السَّاعةَ الثَّامنَةَ مساءً

فكيـفَ قضَى نَهَاره؟ كانَ يمْشـى كثيـرًا.. ليقتلَ الوقتَ ويسـبقَ السَّـاعات ثُمَّ عَادَ إلى بيتهِ.. حَاولَ النَّوْمَ.. لكنَّهُ فَشَـلَ فلَمْ يغمضْ لهُ جفْن.. كَمْ مضَى عَليه منَ الوقتِ وَهُوَ يفكرُ فيمَا سَيقولهُ لهَا..؟

كَمْ عـددَ المرّاتِ التِى نظرَ فيهَا إلى سَـاعَته؟ لمْ تكنْ أكثرَ مِـنَ المرّات التِى توقفتْ فيهَا نظراتُهُ عَلَى سَـاعةِ الجِدَار، ولكنهمَا لسـوءِ حَظـةٍ كَانتا متفقتيْنِ عَليه.. فلاَ تسـبقُ إِحْدَاهُمَـا الأخرى.. بلْ يخالهمَا وقـدْ توقفَا عَنِ السَّيْـرِ والدورَان.

توتـرَت أعصَابُـهُ، واضْطربت عندمَا فكَّـرَ فِى الوقتِ وَثقلهِ.. وقررَ الخروجَ قبلَ الموْعدِ بسَـاعَات.. خرجَ يقطعُ الطريـقَ أمامَ المستشـفَى ذهَابًا وَإيابًـا... يتعجّلَ لقاءَهَا وَيترقّبهُ.. لكنَّ السَّاعاتِ مَرّت كأنهَا دَهْر.

* * *

دموع التماسيح

عندمَا فتحَ لهُ الحارسُ بابهَا، شلّت المفاجَأةُ حَرَكته، ثُم دخلَ عليهَا يجرُّ سـاقيْهِ جَرًّا، يرفعُ رَأْسـه وَعينيْهِ، يَسْبقه قلبُه إليهَا مُرَددًا:

– هلْ سأراهَا الآنَ؟ أحقًا سَأَراهَا؟

فجأةً وَجَدته أَمامَهَا.. مَنْ..؟ أدهم..!! كَلاَّ..!

لَـمْ يكنْ هُوَ بلْ كانَ شـبحًا مُتَحركًا .. مِنْ شِـدَّة قلقهِ وَحُزْنهِ عليهَا.. كانَ شَـدِيد الشحُوب بلْ كانَ يبْدُو كجثةٍ أفلتتْ مِنَ القبْر.. يدنُو منَ الموتِ.. وَلكنه لَمْ يفعَلْ.

حَاوَلـت.. وَبَاطـلاً حَاوَلـت الاختفـاءَ عـنْ نَاظريْهِ دونَ جَدْوى..

فرغمَ مَـا بِهَا منْ عِلل مَجْهولةٍ كانتْ تدرسُ جسـدهَا وتحصدُ شَبابهَا، إلّا إنهَا كَانتْ فِي انتظَار الموْت.

كـانَ صغيرَ الحجم جِـدًّا أمامهَا.. فلـمْ يتعدَّ ركبتهَا فَعُنقهُ تكادُ لا تبلغُ رُكبتَها.. بالكادِ تلامسهَا فجلسَت عَلى فراشـها وضمَّت سَاقيهَا شِـبْه جَالسَة ورَاحَ أدهم يتحدَّثُ

إليهَا فيقـولُ: إش إش.. حقًا حَبيبتـي، عدتُ أرَاك؟! أأنتِ بجانبى الآنَ، أمْ حلمٌ؟

تغمضُ عيَنيهَا لأقصَى مَا تسـتطيعُ، وتطبقُ، أهدابهَا، فتفرَّ دمعةٌ هاربَه منْ أسرهَا، وكأنهَا لا تقوَى عَلىَ رُؤْيته. جَلسَت عَلى مقعد وثير، كبير، ضَخْم.

لمْ يرَ أدهم كائنًا ضَخْمًا، متوحّشًـا كمَا صورهَا البعضُ بلْ رأى حَبيبته بعدَ طُولِ غيابٍ.. اقتربَ فلامَسـت رَأسُه أسفلَ ركبتهَا.

– إش إش، ألـمْ تشـتَاقِى إلىَّ؟ أرغبتِ عَـنْ لِقَائِى؟ أَنَا أدهم يا إش إش.

فوقعَت دمعتُهَا الأسـيرةُ لتسـقطَ مِنْ عينيْهِ هُوَ وتسبقُ كلمَاتهُ، وفتحَت عينيهَا لتبْصرَ شبحًا سَقِيمًا.. هَزِيلًا.

وَراحَ يقبلُ أناملهَا المُنتفخَة المُتضخمَة كلًّا.. لمْ يشـعرْ بأنَّ شيئًا مَا بِهَا قدْ تغيَر. غريبٌ هُوَ أَمْرُ الحُبِّ..!! تكادُ لاَ تعرفُه إلا مِنْ صَوْته.. هَزيلٌ نحيف..

– أدهم مَالـى أرَى خَدَّيكَ بالدَّمع قدْ بُلِّلاَ..؟ أمنْ فرح اللقـاءِ أمْ حزنًا عَلى حَالنَا كمَدَا؟ فِدَاؤكَ حبيبِى مِنْ شـرَ حَادِثى.. رمَاك بهذَا السقمِ والألمِ.

– بلْ فداؤُكَ أنتَ الدنياَ ومَا فِيهاَ.

كانـتْ نبضاتُ صَوْته تـدلُّ عَلى أنه لَا يزالُ فريَسـةَ الحزنِ الَّذى رَأَت عَلاَمَاتـه عندَ مُقابلته آخرَ مرةٍ فألحَّت عليه بسؤالهَا:

– أدهم.. لا تبكِ.. كفاكَ حُزنًا علىّ.. لا تخَفْ، وانتبهْ إلى نفسكَ، لأنَّ الحزنَ عَلىّ مَا حدثَ لَنْ يشفينِى وَيُنْجينى ممَّا نزَلَ بى.

وَتذكُرُ كلمَاتَهُ مُداعبةً إياهُ فِى مُحَاولةٍ بريئةٍ لطيفةٍ منهَا لإخرَاجِه مِمَّا هُوَ فيهِ:

– هنَـا لا تقعُ العينَ عَلى غيرى وَلاَ غيرك.. ولا يطَّلعُ إنسانٌ عَلى سِرِّى وَلاَ سِرِّك. ما أعجبَ المُلتقَى يَا حَبيبتى.. لمْ أصَدقْ ذَاتِى..

أأنتَ مَعِى مَرَّةً أُخرَى؟

يكسـوهَا الحزنُ رغمًا عنهَا، فتفترُ ابتسامتُهَا وتنْحسِرُ وهُوَ يعاودُ قائلًا:

– قـدْ يهونُ العمرُ إلاَّ سـاعةَ رِضَـاكِ.. وتهونُ الأرضُ وَالدنيَا إلاَّ موضعَ قدميكِ.

– كَمْ تُهوِّنُ عَلَيَّ كلمَاتكَ تلكَ يا أدهم شـرَّ مَا أنا فيهِ مِنْ بَلِيَّةٍ وَعَذاب.. فمَازِلتَ تتغنَّى بِي يَا أدهم حَتَّى بعدَ فِرَاقنَا.

– كلاَّ.. لـمْ نَفتـرِقْ.. ولـنْ نفتـرِقْ.. بلْ وسَـأغنِّى بِكِ ولكِ مَادمتُ حيًّا.. يقولُون بَهِا غَنىً.. قَدْ غنْيتُ منْ كَرْبِى.

– أترانِى يا أدهم.. كيفَ أَصْبحْتُ..!

تملأ عيناهُ الحبّ وهو يقولُ: مازلتُ بِعَينَيَّ فرَاشـتِى، طفلَتِى الجَمِيلةِ، ستظلينَ هكذَا حتَّى آخرَ العُمرِ.

– طِفلة..!

– الطفلةُ أصبحَت مُسْـتحيلة الآنَ يا أدهم..!! أجلْ، فأنَا الطفلةُ العجِيبةُ، المُستحيلةُ التِى لاَ مثيلَ لهَا، وَلاَ شَبيهَ لَهَا فِى هَذهِ الدنيَا.

تنفضَ شـعرهَا الطَّويلَ للخلفِ فتبـدُو كجنيةٍ عَجيبةٍ، أَوْ عروسٍ مَسْـحورةٍ مِـنْ عرائِسِ الأَسَـاطير، وتتنهدُ وَهِى تجمعُ أَشـلاءَ نفسـهَا لتقولَ بمجـرَّدِ أنْ رأتْ الدُّموعَ عَلى خَدَيْه:

– كفاكَ دُمُوع التماسِيح تلكَ.. إذَا كنتَ حقًّا تحبُّنى فمَا يُبْكِيكَ الآنَ؟

هــزَّ أدهم رأســه وراحَ يتأملُها ويتذكّـرُ أحَاديثهُ التي طَالمَا أعجبتهَا.

فقالَ: وهــلْ خدعتــكِ يومًا مَا لتشــبِّهِى دُموعِى بدموعِ التماسيحِ فمَا أفظعَ المقَارَنة؟

ضحكَتْ مُبتسمةً وَهىَ تقولُ: أجلْ فَالتماسيحُ تَفعلُ فِعْلتهَا وَجريمتهَا الشَّنعَاء بِالتهَام ضَحيتهَا منَ الحيوانَات ثُمّ سرعَانَ ما تذرِفُ الدمـوعَ الغَزِيرةَ بكاءً وحزنًا عَلى ضَحيتهَا.

– كلاّ.. يَا حَبيبتى..

فالتماسيحُ لا تَبْكِ عَلى ضَحيتهَا أبداً.

– أمازِحٌ أنتَ أمْ تسخرُ منّى؟

– كيفَ؟

عادَ كعادتهِ السَّــابقةِ يتحدَّثُ بثقَةٍ ومعْرفَةٍ.. بالطَّريقةِ الَّتِــى تعجبهَا وَكأنه يتعمّدُ إشــعَارهَا بــأنَّ كلَّ مَا بينهمَا سيظـلُّ كمَا كانَ.

– ليــسَ بالضرورةِ أنْ تكونَ الدمــوعُ دليلًا عَلى الحزنِ والبكاءِ فالتمَاسيحُ بعدَ أنْ تلتهمَ فَريستهَا (الضحية) تبتلعُ معهَا كميّاتٍ هائلةٍ منَ المــاءِ والأملاحِ.. ولذلكَ يجبُ أنْ

يطردَ جسـدُهَا كميةَ الأملاحِ الزائدةِ والضَّارةِ بِهَا المبتلعَة فتخرجَ منَ الغددِ الدمْعيّة وليسَ هناكَ مَخْرجٌ سِواهَا.

– إذنْ فهيَ لا تَبْكِ.

– بالطبـعَ يَـا حبيبتى، إنهَا لاَ تَبْـكِ.. لكنهَا تخرجُ الأملاحَ فَقَطْ. فليسَ كلُّ الدمع بُكَاءَ.

تنظرُ إليه أشجَانُ نظرَة يملؤهَا الإعجابُ والحبُّ.. أدهم كَمَا هُوَ، عَارِفا بكلِّ مَا تجْهله.. كَمْ تحبُّ فيهِ كلَّ شيءٍ.

وَنَسِـيت أشـجَانُ مُصِيبتَهَا، وأحزانَهَا.. فهوَ الوحيدُ فِي هذِه الدنْيا الذِى بِوُسْـعِهِ أَنْ يمسـحَ أحزانَهَا ويخَففَ آلامَهَا، مَعهُ تنْسى كلَّ شيءٍ، وتحبُّ كلَّ شيءٍ.

مَا لهذَا الحبِّ مِنْ سِـحْرٍ عَجيبٍ يغذِّى الروحَ فينسيكَ الجسـدَ وكُهُولته، وعجْزه واضْطِرابـه، وضَعْفه وَحَالته، فيحوِّلَ السِّجنَ لجنّةٍ.. وَارفَة الظِّلَال.

– أدهم .. كَم أنا بحاجةٍ مَاسَّة إليكَ الآنَ يَا أدهم.

– حاجتِـى إليـكِ يَا أشـجَان تفوقُ حَاجتـكِ إلىَّ.. فمَا أتعسَـنِى حالاً فِى هَذِه الدنيَا دُونـكِ.. فَلتأْخُذ الدنيَا كلَّ شيءٍ مِنىِّ.. سواكِ، أنتِ، يَا أشجَان.

وتوقَّعَ بعضُ الباحثينَ تَوحُّشَ تَصرفاتها كراهةً ونتيجةً لمَا حَدثَ لهَا مِنَ اضطرابـاتٍ، جَعلتهَا بهذهِ الضَّخَامة، ولاَ شـكَّ ستدفعهَا تلك الحالة النفسية لاقترافِ أىِّ أعمَالٍ عَشْوائية غَيْر وَاعيَة. ومنْ هنَا أصبحَ الجميعُ يتابعونَ تطوُّرَ حَالتهـا المرضِيَة عَن كَثَـب.. خوفًا مِـنَ الاقترابِ منهَا أوْرُؤيتهَا.. فهِىَ تمثلُ لهُم وَحْشًا ضَاريًا.

وكمْ لاَقـى أدهم منْ مُعَاناةٍ للوصُول إلـىَ هَذَا الحَارس الـذِى عـرفَ عنهُ أنهُ الشَّـخْصُ الوحيدُ الذِى يسـتطيعُ التَّحَـدثَ معهَا، فقد كانتْ تعليمَات المستَشـفَى صَارمةً مُشـددةً بعدم زِيَارتهَا منَ الجمْهور، وحتـىَّ أهلهَا وَعَدم زيارتهَا إلا بتَصريح خَاصٍّ رَسْـمى مِنْ إدارةِ المستَشْـفَى وَبُوجُودهم.

وكانَ بِالفعلِ لاَ يُسمحُ بزيارتهَا إلا المصوِّرونَ والمذِيعُونَ والباحثُـونَ وَالقائِمـونَ عَلى رِعَايتهـا وخَدمتهَا ويدخلونَ إليهَا بِحراسَةٍ شديدةٍ وَمُكثفَة.

ازدادَ حجمهَا عمَّا كانت مَنْ قبلُ، وعَادت لتمنعَ رؤيتهَا منْ جديدٍ عَنْ أدهم.

وبـــذلَ أدهم قصَارى جُهده للوصُولِ إلىَ هذاَ الحَارس، الَّـــذِى أصبحَ أهمُّ شـــخصٍ فِى العالمِ الآنَ؛ لِمَـــا يَنْقُله منْ أحداثٍ وأخبارٍ عَنْ أشجَان.

وَكَم احتالَ أدهم حتىَّ اسْـــتطاعَ الوُصُول إلىَ أشـــجَان مـــرةً أخرَى وعندَما فُتح البـــابُ.. جاءهَا حامِلاً باقةً مِنَ الزهور يفتعلُ ويرســـمُ الابتسامَة عَلى شفتيْه.. يُجَاهدُ فِى إخفاءِ دُمُوعه.

وراحَ يرفـــعُ إليها بَصَره وَكأَنهَا لَوْحة ضخْمَة مِنْ صُنْعِ يدٍ شِرِّيرةٍ عَبَثت بَجَمَالها وَحُسْنِ قَوَامهَا.

– أدهم.. هَل صَدَّقتَ مَا قِيلَ عَنى؟

وأردفـــتْ تقولُ بصـــوتٍ تقْطعـــهُ العبـــراتُ: وَأننِى مُ.. تَ.. وَ.. خِّشَةٌ؟

– أنتِ..! أنتِ يا أشجَان مُتوحشة؟ كيفَ ذاكَ والحبُّ لمْ يسكنْ قلبًا مِثلَ قلبكِ أنتِ يَا أشجَان؟.

تعاودُ سُؤَاله بصوتٍ مُتقطِّع.

– ألا تخافُ مِنِّـــى؟ فأنَا أعاملُ مُعَاملة الحيوَان البرِّى وَحشًا ضَارِيًا؟

– أأنتِ وَحْشٌ حَيَوَانى..! وَلاَ يوجدُ فِى الدنيَا قَدْرُ عَطَائِـكِ.. ولوْ لمْ يكنْ فِى كفيْكِ سِـوَى روُحكِ لجدتِّ بِهَا لِسَائلكِ.

– أدهم إنىِّ أسْألكَ ألاَّ تشغلُ نفسَكَ بى؟

– مَنْ لى سواكِ لأنشغلَ بهِ يَا أشجَان؟

– أرجُـوكَ يَا أدهم.. أتوسَّـلُ إليكَ.. لا تعذبنِى بعذابكَ لقدْ زَهدتُّ فِى كلِّ شـىءٍ.. ورغبتُ عَنْ أىِّ شىءٍ.. وَلمْ يعدْ لـى مطمعٌ وحلمٌ الآنَ.. سـوى المَوْت. تخيّـلْ يَا أدهم..! عندمَا يصبحُ المـوتُ حُلمًا، وَأمَلًا.. وتضنُّ بهِ الحياةُ علىَّ. عندمـا يصبحُ الموتُ رَحْمة.. مِنْ كلِّ شـىءٍ.. منَ الحَياةِ، وَجَحيمهَا.. بِشَتَّى أشكالهَا وَألوانهَا. فهوُ الحلمُ الوحيدُ الذِى أتمنىَّ تَحْقيقَهُ الآنَ.. أمِنَ العسيرِ عَلىَّ تحقِيق هَذَا الحُلْم؟!

– أشجَان.. لمْ يكنْ هذَا حُلمنَا يومًا مَا؟

– ولكنْ لم يعدْ لِى الحَق فِى سِوَاهُ بعدَ الآن، بلْ لمْ يعدْ لِى القدرَة عَلَى تخيُّلِ وتمنِّى غيرَهُ.

وأنَـا..! ألمْ تُفكرِى فِىَّ؟ ومَاذا عَسَـاى بِوسْـعِى فِعْله بدُونكِ يَا أشجَان؟

– وهلْ لي مِنْ حياةٍ معَكَ بعدَ الآن يَا أدهم؟!

صَرخَ بقوةٍ: ستعودينَ مثلمَا كُنتِ.. سَتعودينَ مِنْ أجلِي أَنَا.. وَمُستحِيل.. قَاطَعتْهُ:

– لستُ الشيءَ الوحيدَ المستحِيلَ فِي هَذِه الدنيَا يَا أدهم، وإنمَا عِلاجِي أيضًا مُستحِيلٌ، وَحبنَا أيضًا أصبحَ مُسْتحِيلًا.

صرخَ بعنفٍ وَصَوته تُمزقُه الدموعُ:

– كلا.. يا أشجَان.. إنِّي أَسْتحلفكِ بالرحمنِ ألاَّ تقُولِي هَذِهِ الأقاوِيل.. فالمحَالُ هُوَ فِرَاقنَا.. وسيظلُّ حبنَا إلىَ الأبدِ رغمَ كلِّ مَا حدثَ وَمَا يَحْدث. قالتْ بتنْهيدةٍ طَوِيلةٍ:

– وَمَا سيَحدُث..!

ثُمَّ استمرَّت تقولُ: لقدْ فَلَتُّ مِنْ ظُلمة الرَّحِم، ولكنْ منْ يُنقذنِي مِنْ ظُلمةِ الحياةِ الآنَ. أبحثُ عنْ لحظةٍ واحدةٍ.. لحظَة رَاحةٍ.. لحظَةً يغيبُ فيهَا عَقلِي.. فَلاَ أفكرُ. لحظةً يضيعُ فِيهَا وَعْيِي.. فلا أدركُ مَا أنا فيهِ لينقذنِي مِنْ هذا العذابِ ومِنْ هذِه الحيَاة؟

كيفَ تعذَّبينَ وأنا بجانبك يَا أشجَان؟ فمَا فائدةُ وُجُودِي إذنْ فِي هذِه الدنَيا إذا لمْ أستطعْ تخفيفَ آلامكِ وأحزانكِ؟

وماذَا فِي الأمر منْ حَدثٍ؟ إنيَّ لاَ أرَى هناكَ سِوَى مرضٍ وَضَخَّموه وَفعلُوا منه أسطورةً لا تُقهرُ رغمَ ضآلته أمامَ حُبِّي الكبير.. آه.. يَا أشَجان لوْ تعلمينَ ما أحْمله لكِ منْ حبٍ. لـوْ كانَ بِوُسـعِي أنْ أحملَ عنكِ مَا أنتِ فيـه مِا ترددتُ لحظةً واحدةً فِي ذلكَ؟

– أعلمُ يا أدهَم أعلَمُ.

وأخفـتْ وجهـهَا بيـنَ كفيهَا لتنتحبَ. وكَـمْ جاءتهَا كلماتُـه تلكَ لتلتفَّ فِي عَباءةٍ منَ الـدفءِ والحبِّ لتقيهَا بَرْد الوحدةِ القارسَ وتخففَ عنهَا هذه المأسَـاة.. وتغيبَ عن الوعِي فِي سَكْرةٍ مِنَ الحبِّ لتنسَى كلَّ شيءٍ ولكنهَا لمْ ترغبْ فِي الاستسْـلام لهذا المخَدِّرِ العذبِ ولوْ للحظَاتٍ. هَمَست لهُ قائلةً: إنيَّ سَجينة يَا أدهم..

– وأنَاَ مِثلكِ سَـجِين.. لقَد ضَاقـت الدنيا بعدكِ عَليَّ بمَا رَحُبـت.. ولكنْ عزَائي الوحيد هو الأملُ فِي الشـفاءِ والعلاجِ لأنكِ قطعًا سَتعالجِينَ ولاَ محَالةَ فِي ذلكَ.

بكتْ وارتفعَ عويلُها فَهمسَ يقولُ: ولكننِي سأظل مَعَكِ.. ولنْ أدعَ مَجالا لليأسِ مِنْ عِلاجكِ، وكليَّ أمَلٌ فِي الشـفاءِ

ولذلكَ ستظلُّ رُؤيتكِ ومقابلتكِ تُسْعدنِي.. فأناَ سعيدٌ بِكِ رغمَ كلِّ شيءٍ رغمَ العذابِ.. والسجنِ.. والإشاَعاتِ.. رغمَ الحواجزِ، والقيودِ، والسُّدودِ التِى بيننَا.

– مَازلتَ شاعرًا خياليًا فأنتَ يسعدكَ الخيالُ والأملُ وأنا يشقينِي الواقعُ وَالحَقيقَةُ.

أطرقتْ بعدَ أنْ أمسكَ عن الكلامِ.. فَرأى دموعَهَا تنحدرُ عَلىَ خديْهَا كحبَّاتِ اللُّؤلؤِ فِى سُكونٍ لتستقرَّ عَلىَ وَجنتيهِ هُوَ فقالتْ بهمسٍ تخالجُه العبراتُ:

– لا تبكِ يَا أدهم وَلاَ تخفْ.

– أخافُ الفراقَ.

– فراقَ الحياةِ أم فراقَ الموتِ.. فكلاهمَا فِرَاق.

– أمـا فراقَ الحياةِ فإننِى لاَ أخَافه.. لأنهُ لَا توجدُ قوةٌ فِـى العالمِ تسـتطيعُ أنْ تحولَ بَيْنِي وبينَـكِ، وَإنماَ فراقُ الموتِ، لأنه الفراقُ الوحيدُ الذِى لا حيلةَ لنَا فِيهِ.. وَلَا مَفَرَّ مِنْهُ.

وبدأ النهارُ يَسْتعدُّ للفرارِ مِنَ اللَّيلِ ليتركهَا أدهم حبيسَة الردْهـةِ والآلام.. وراحَ أدهم يناشـدُ الدهـرَ أنْ يكفَّ يَدَه

ولوْ للحظةٍ واحدةٍ عنهَا.. إذْ كَيفَ تحتمِلُ وحدَهَا كلَّ هذِه المعَاناةِ والشقاءِ.

* * *

وعــادَ أدهم وَحيدًا.. ولأولِ مرةٍ يصبحُ الكونُ بمَا رحُبَ قبرًا.. يَضيقُ عليْهِ.. وبهِ.. لتهونَ دُنياه تحتَ قدميهَا.

وكــمْ حاولُوا – وَعبثًــا حاولوا – إقصــاءهُ عنهَا دونَ جَدوى. ولمْ يُصبحْ لهُ شــاغلٌ سِــوَى أشجَانٍ وَكأنَّ هواهَا ألقى حجابًا عَلى عينيْهِ فلمْ يعدْ يَرَى فِى الدنيَا سِوَاهَا.

فكانَ جَوابه عَليهم كَمَا يقولُ لأمه:

– دعونَا وَشَــأننَا.. فَوَ اللهِ مَا يبقَى إذَا مَا فنيتُم شيءٌ.. خَلاَ الحُبَّ باقيًا.

وكانــتْ رؤياهَا تزيُده قوةً وأمــلاً.. وَعَادت لتَمْلأَ دنياهُ مِنْ جديدٍ. وَكمْ حَاوَلت أفرادُ أُســرتهَا زيَارتهَا لكنهَا أبَتْ رَافضــةً رُؤْيتهم.. ولمْ ترغبْ فِى رُؤيةِ أحدٍ فِى هذِه الدنيَا سِوى دُنيا وَأدهم.

فسألتْ أدهمَ أنْ يرسلَ إليهَا دنيا.

* * *

الأمومة.. سر إلهى..!

أصبحَتْ خيالًا مِنْ خَيالاتِ الوجُودِ.. شبحًا مِنَ الأشباح التِى لَا وجودَ لَهَا.. مِنْ فرطِ مَا بِهَا مِنْ حُزنٍ عَلَى حَبيبتهَا أشجَان.

وحانَ اللِّقَاء..

فَقَدت وحيدتهَا التِى حُرمَت مِنْ أجلهَا، وَفِى سبيلهَا، مِنْ سائرِ نِعَمِ الحيَاة.. فإذَا الحياةُ تسلبهَا كلَّ ما تبقىَّ لهَا.. فقد قامرَت بكلِّ ما لديهَا، فلمَّا خَسرَت خَسرَت كلَّ شىءٍ.

وجاءتهَا تحملُ عرائسهَا المُتحركة، وكتبَ الأساطير والحكاياتِ، وقصصَ الأدبِ وَطَرَائفه.

جذبتهَا أشجَان لتجلسَهَا عَلىَ سَاقيهَا وَتقبلهَا، وجَاهدت وَهِىَ تحاولُ ألا تبْكِى أمامهَا.. ولكنْ كانَ مِنَ العسيرِ عليهَا أنْ تَتَمَالك نفسهَا وَهى تراهَا بهذَا الحَال.

– أشجَان.. إش إش.. صَغيرتى، ألمْ تشتاقِى لأَصْدقائكِ.. كُوكِى يسألُ عنكِ.

وأخذ يصدرُ أصْوَاته المتَلاحقة مُهَلِّلًا لرؤيَاهَا ويقفزُ مُتدرجًا بجسدهَا، حتىّ وصَلَ إلى رَأسِهَا.. يتعلَّقُ بهَا، يقبلهَا، يداعبهَا.

ولأولِ مرةٍ تبتسمُ أشجان بعدَ دخولِهَا المُستشفَى. لقد اسْتطاعت أمهَا دنيا وحدهَا أنْ تعيدَ إليهَا ابتسامتهَا وتهدئتَهَا وَقالت لهَا:

ستشفينَ وتعُودينَ مثلمَا كنتِ.. فَرَاشة، رَقيقَة، جَميلة.

امتلأتْ عيناهَا بالدمُوعِ فَأردفتْ:

– صَدِّقينـي يَا صَغيرتِي. سَتعُودينَ تَرْقصينَ.. تجدينَ أدهـم فِي انتظارِكِ، فَمَا هِيَ إلاَّ أيامٌ معْدُودات.. وَستتغيرُ كلُّ هذِه الأحوَالِ الطَارِئَةِ، لتعودِي مثلمَا كُنت.

وعندئـذٍ لـنْ يسـتطيعُوا حِرْمانِي مِنْ حضـور حَفلاتكِ لمشاركتكِ فِي كلَّ شـيءٍ، وَرَاحت دُنيا تعيدُ عَلى مسمعهَا صورًا مِنَ الماضِي الجميلِ، لتخفِفَ بِهَا وَطْء الحَاضِرِ البشعِ. وشردتْ أشـجان وهِيَ تنظرُ إلى كوُكِي وتعيدُ صورَ حياتهَا المَاضية، المَاضِي القريبِ.

منذُ شـهور، شُـهور فقط. كانتْ كحُورية مِنْ حُوريات الجَنّة، ترقُصُ، تَجْرِي، تحلقُ بَعيدًا عَنِ الدنيا.. وَراحتْ للحظةٍ تستعيدُ كلَّ هذا بدفءِ المَاضِي وثوبِ المُستحيلِ..

ولقاءُ أدهم.. وشـجرةُ الحبِّ.. وَشَـارِع الأمانِ. وَرَوْعةِ المكانِ الذِي يسيرَان فيهِ. كَمْ كانتْ أيَام.. وقتهَا لمْ يستطعِ

الحزنُ أنْ يسلكَ طَريقًا إليهمَا يومًا مَا. فإذَاً بالحَيَاةِ وكأنهَا كانـتْ تَدَّخرُ كلَّ عذابِ الدنيَا وبلائهَا لتهديهَا إيّاه، فِي صِبَاهَا، وَفِي أجملِ فتراتِ شبابهَا.

كَمْ أسـعدَهَا هذَا اللقاءُ، وبدَدَ وَحشـتهَا.. دُنيا وأدهَم بمشاركتهمَا فِي مَأساتِها الَّتِي لَا حيلةَ لهَا فيهَا وَلاَ شَفَاعةَ وَهِيَ مَرَضُهَا.

* * *

ظنَّ العلماءُ أَنَّ حالةَ أشـجَـان تحسَّـنت بمُقَابلتهَا لأدهـم وَدُنيا.. وأنهَا سَتسـتجيبُ للطَّعـام والتَّحَاليلِ طوعًا منهَا لا قسرًا عنهَا، إلا أنهَا ظلّت ترفضُ الطعامَ وتمتنعُ عـنِ الكلامِ طوالَ الوقـتِ.. لأنهَا غيرُ متوقعَةٍ العلاجَ الشَّافِي لحالتهَا.

وَظلّتْ أشجانُ أوقاتهَا فِي ترقُّبٍ وانتظارٍ لِلنِّهَاية، كَمَا تترقَّبُ سـاعةَ الموتِ، لتحفلَ بـه لينقذَهَا مِنْ هَذا الحمْلِ الذِي باتتْ تفقدُ قُدرتَهَا عَلىَ تَحمُّله.

كانَ القـردُ الشَّـقِي كُوكِي هُوَ الوحيدُ فِـي هَذِه المهزلةِ والمسْرحيَّةِ التَّرَاجيديَّةِ التِي يتقاسمونَ أَدْوَارهَا رغْمًا عَنْهم.

هوَ الوحيدُ الذِى يُسْـعدهُ رُؤياهَا هَكَذا، ربمَا لغرابتهَا عَنِ الآخرينَ وربمَا لعدَم إدْرَاكه كلَّ مَا حَدث.

ذلكَ لأَنَّ كُوكِى، لَا يَحزَن وَلا يَيْأس، مَاَ أَسْعده حَالًا بلْ مَا أسْعدَ تلكَ الكائناتِ التِى يبدُو لا عقلَ لهَا وَلَا اخْتيَار.

لكَنْ..!!

كانتْ أشـجانُ تنظرُ إليهِ، تتابعُ تَعَجبه، تغبطهُ أشدَّ الاغتباطِ لمَا وَهبهُ اللهُ مِنْ نِعَم لَا يدركُهَا وَقَالتْ لَهُ:

– كمْ كنتُ أتمنَّى لوْ أصبحْتُ مثلكَ أنا الأُخْرى.. انظرِى يَا أُمِّى الصَّغيرة كَمْ هو فرحٌ بلقائِى وَرُؤْيتِي هَكَذاَ!!

لَمْ تمضِ لحظة مِنْ لحظاتِ أشـجان إلَّا وَكَانت تتمنَّى فيهـا الموتَ والخلَاصَ مِنْ حياتهَا وسـجنهَا، رحمةً بِهِمْ أيضًـا، حَتَّى لَا تؤلمُهُم، وَتُعذبهـمْ برُؤيَاهَا هكذَا فيزيدهَا عذابًا فوقَ عذابِهَا.

* * *

كَانتْ أشـجَان تُعَانى تلكَ المعَانـاة الهَائلة التى تجدُ رغبـةً قويّة.. رغبـةً عَارمة تجتاحُهَـا للتَّعبير عنهَا، بَلْ للبـوْح بهَا، وكأنَّ فِى ذَلك رَاحـة لهَا، لتفريغِ مَا تحمِله مِنَ الآلام والشَّقَاء.

تشعرُ بحَاجةٍ مَاسّة لكتابةِ كُلِّ مَا يجتاحها وكأنَّه حِمْل ثَقيلٌ تنُوء بحمْله. فَستَلْقي هذَا العبْءَ الثَّقيل، وتلكَ المأسَاةِ الغريبةِ بمَا تحمِله مِنْ هواجِسَ وَشُكوكٍ عَنْ كاهلهَا، لتلكَ الأورَاق علّها تهدأُ وَتَسْتَرِيح.

* * *

عَثرُ مُصَادفةً أحدُ أعدَاءِ تَلاميذ أنتينورى، وكانَ شديدَ العداوةِ والكرَاهيةِ لَهُ، عَلى كلِّ شيءٍ فِي تجربةِ استعَادة أشجَان وخروجهَا للحَياةِ مِنْ جَديد.. ولمَّا كانَ العَالمُ يتابعُ حالةَ أشجان بمَا فِيهم أنتينورى، فقد رَفع الأمرَ للقضَاء.

وقامتْ وقتهَا كلٌّ مِنَ السفارةِ المصْريّة والمكتبِ الثَّقافى والاعْلامِي بنقلِ الأمرِ، وإرْسَال كلِّ مَا يشاعُ عَنْ تجربةِ أشجَان العلميّة بمستشفَى (الاستنساخ والولادة) إلى الأنباءِ المِصْرية.

وَلمْ تَمر لحظَاتٌ منذُ إعلانِ هذَا النّبَأ إلّا وَتداولتهُ جميعُ الصحُفِ ووسائلُ الإعلام فِي جميع أنحاءِ العالم لدرجَةِ أنْ اطلقُوا عليهَا اسمَ حَوَّاء (EVA) رمزًا لأول أنثَى مُسْتنسخة فِي العَالم.. وأولُ طفلةٍ وحَالةٍ بشريةٍ مِنْ نوْعهَا.

ثـارتْ بهَا الدنيَـا ولمْ تَهدَأ، وهـربَ أنتينورى مِنَ الحكْم الذِى صَدرَ بمحَاكمتهِ لتجريمِهِ فِى إجراءِ تجاربَ عَلىَ الإنسانِ، وإخفَاءِ ذلكَ رغمَ التحذيرِ وإصدارِ القَوانين الصَارمَة لِمَنْ يَتَجرّأُ ويفعلُ ذَلكَ. وكمْ زَادَ عددُ السائحينَ الذيـنَ أتـوْا مِنْ مُختلـفِ أنحاءَ العـالمِ لِـيرَوا الطفلةَ المُسـتحيلةَ، وَخاصَّة مِنْ إيطاليَا.. وقبلَ تحذيرِ الحارسِ مِـنْ إدلاَء ونقْـلِ أيّة معلُومَات لأشـجَان، كانَ قدْ قصَّ عليهَا كلَّ شئ بالتفصِيل.

لقَدْ أوصَاه أدهم بتَلبيةِ كَافةِ مُتطلبَات أشجَان، وَكانتْ أشجَانُ تطلبُ الصحفَ وسماعَ بعضِ الأخبارِ فيتسللُ إليهَا براديُو صَغيرٍ وَبالصحُفِ والمجلاَّت الَّتي تعرضُ كلَّ شـىءٍ يحدثُ لهَا بالتفَاصيل.

تجلسُ أشـجان.. تفتحُ الصحيفـةَ التِى نقلَت التجْربةَ بكاملِ تفاصيلهَا، بكلِّ وضُوح، بلاَ بتْرٍ، وَلاَ حذْفٍ، ودونَ اختصَارٍ. كانتْ أنفاسـهَا تتلاحقُ ودموعهَا تتسـابقُ وَهِىَ تقرأُ أحداثَ حياتهَا الغَريبةَ.. وتهربُ السطورَ.. وتتلاحقُ وتتشـابكُ أمامَ عينيهَا، وتمسـحُ دموعهَا لتتمكّنَ مِنْ رؤيةِ

قصَّة حياتهَا، لتعرفَ فَجيعة شـكوكِهَا وأنَّ مَا شعرتْ به لمْ يكـنْ باطلًا هباءً وتجنيًا. بلْ كانتْ كلُّ شـكوكَهَا فِي موقِعهَـا، وَأنّ دنيا هِـي أمهَا، فهيَ التِـي حملتهَا وَهْنًا عَلىَ وَهْنٍ، وفصالهَا ورعايتهَا وحبهَا لهَا. وَعَرفت أشجَان حقيقةَ وجودِهَا وسرّ حَياتهَا، ومَا كانت تخفيهِ عنهَا أُمهَا وَرَاحت تغمضُ عينيهَا.

فإذَا بهَا تَرى كلَّ شـيءٍ.. أمامَهَا.. وَكأنهُ يحدثُ الآنَ فقطْ. تَسْـتعيدُ اللّحظاتِ التِي كَادت تعذبهَا مِنْ قبلُ دونَ تَفْسـير، فهَا هِيَ الآنَ تعثرُ عَلى ضَالتها المنشُـودةَ والسرَّ الضائعَ، وتحلُ اللغزَ العسيرَ الذِي طالمَا حيَّرهَا وكمْ عذبهَا طويلًا. فهـيَ بلا أَب، وَأم. كلَّا.. إنهَا ليسـتْ أمهَا.. فهـيَ أُم شـقيقتهَا.. تَوْأمِهَـا الراحِلة التِـي نزعُوا منهَا الخلايَا وَاسْـتباحُوا قبرهَا، أمَّا دنيا فهيَ بِلا شَـك أمهَا ولا مَحَالةَ فِي ذلكَ. وانفردَت إحدى المجلات بنشْرِ كَافةِ التفاصِيل بمنتهَى الدقةِ والصِّدقِ، ولَمْ تكنْ أشجان وحدهَا هِـيَ التي تقرأُ كلَّ هذِه التفَاصِيل، بَلْ قرَأهَا كُلُّ مِنْ أدهم ودنيَا وَالأم ضحية.

كانتْ قصتهَا ناقصَة غيْر كَامِلة، فلمْ تكْتب المجلةُ تفاصِيل شعورهَا وَإحساسهَا ممَّا جَنتهُ مِنْ جرَّاءِ تلكَ التجربَة، ورَغبة الأم فِي أنْ تصبحَ أُمًّا بَأيةِ وَسِيلةٍ وبأىِّ ثمنٍ.

وَرَاحت تقضِى وقتهَا كلّه فِى كتابةِ وسَـرْدِ رِسَالتهَا.. إنهَا أطولُ رسَـالة كتبتهَا فِى حَيَاتها، بلْ أطولُ رسَـالةٍ كُتبتْ فِى التَّاريخ.. فهِىَ لمْ تكنْ رسَـالة وَحسْـب.. بلْ كانتْ حياتهَا كلهَا التِى كانَ لزامًا عليهَا إكمالُ مَا ينقصهَا. وأوصَت الحارسَ منذُ بدايةِ الشُّـروع فِى كتابتهَا أنْ يُسلِّمَ تلكَ الرسَالةَ لشخصٍ واحدٍ فقطْ.. هُوَ أدهم.. ليطلعَ عليهَا ويقرأ كلَّ مَا بِهَـا لتكونَ لديهِ وَحده الحكايةُ كامِلة، غيرُ ناقصَةٍ، وَلاَ مبتُورة.

* * *

وعندمَا أتتهَا دنيا سَألتهَا أشجَان:

– هلْ كنتِ تعرفينَ أننِى مُسْتنسَخَة؟

– كنتُ أعرفُ أننِى أحملُ بُويضَة ضحيَّة المخصّبة فِى رحمِى؛ لأنهَا لمْ تستطعْ حملَ هَذه البويضَة، وهناكَ خللٌ مَا فِى رَحمهَا يطـردُ البويضَات منهَا. وبالتالِى كانَ دورى

مُحَـددًا وهُوَ حملُ بُويضتهـا المخصّبة ولكنْ لمْ أتخيلْ قَط إننـي أحملُ بُويضَة معمليّةً مجْهولةً لامـرأةٍ غيرِهَا ومَادة وِرَاثية لِطِفلتهَا المَيّتة.

وَرَاحتْ تقصُّ عليهَا دنيا الحقيقةَ كامِلةً، بكلِّ تفاصيلهَا المؤلمَة كَمَا كانتْ تعرفهَا وكَمَا صورَهَا لهَا الآخرونَ..! كَمْ عدد المرّاتِ التِي نُشرَت فيهَا وَطُويت صفحَاتُ المجلّة..؟

لَا تدرِي.. كانت السطورُ تجْرِي خلفَ بعضهَا البعْض، تتسابقُ أمامهَا بلَا رحمةٍ فلَا تستطيعُ مُلاحقتهَا.. والدموعُ تَنسـابُ علـى وَجْنتيهَا مِنْ هَوْلِ مَا تَقْـرأ. الكلماتُ تُميط اللِّثامَ عنِ الحقيقةِ المسْتُورة.. ليرتجفَ كلُّ مَا فيهَا..

وَأخيرًا حُلّت شـفرةُ حياتهَا. ولغزُ مرضهَا، وسرُّ أمهَا وغُمُوضها. كلَّا.. لمْ يفجعْهَا كلُّ مَا عَرَفت مِنْ أسرَار..

فقدْ رَوّضهَا المرضُ فأفقدهَا القدرةَ عَلى الإحساسِ والشعورِ بأيةِ فَجيعةٍ أُخرى.. لتتسـاوَى لديهَا كلُّ الأَشـيَاء.. المرةُ والحُلوة.. لتفقدَ الإحساسَ بالحياةِ والزمنِ..!

وكيفَ تكونُ هناكَ فَجيعةٌ أوْ مُصيبة أدْهَى بَلاءً ممَّا هِيَ فيه.. فهِيَ فِي مُصيبةٍ أشدُّ وَمُصِيبةٌ أقوى مِنْ كلِّ المصَائبِ والنوَائب..؟

لقدِ انفرَدَ البلاءُ بهَا، فحلَّ بِهَا وحدهَا دونَ الآخرينَ.. فأصابهَا بعللٍ لَمْ يصبْ بِهَا إنسانٌ آخرُ فِي الوجودِ كُلِّه.

* * *

وعَـادت الأُمُّ «ضحية» لترَى الأرضَ غيرَ تلكَ الأرضِ، والسَّماء وقدْ تلبدَتْ بالغُيوم القَاتِمَة، حتَّى الطَّبيعة أصبحَت صَامتـةً.. وَاجمَة.. حَزينـةً وكأنَّ الدنيَا عَادت إلى عهدهَا الأولُ لاَ يسـكنهَا أحَد.. مُوحشَة، مُرعبةٌ، مفزعَةٌ، تخلُو مِنْ كلِّ شـيءٍ إلا مِنهَـا. وَقَدْ فقدَت حَيَاتهَا بتلكَ المَأْسَـاةِ القَاسِـيَة. ورغمًا عنهَا تعيشُ تجترُّ ذكرياتهَا مع الحرمَانِ والبحـثِ عنْ طفلةٍ تملأُ حياتهَا، فإذاَ هِيَ الآنَ تعانِي مِنْ جديدٍ وليتهَا وَحْدها هِـيَ التِي تُعَانى.. لكنْ يُعَانى معهَا كلُّ مَنْ فِي البيتِ، وَتُعَانى طفْلتُهَا الوليدةُ وحْدَهَا، لتحملَ عَلـىَ عاتقهَا وحدهَا جَنْي مَـا زرَعته فِي أرضهَا مِنْ زهرةٍ بريّةٍ فِي ريعَانِ شبابهَا لِتُعانى قسوةَ الحرمَان.. فِي انتظارِ الموْتِ.. بلْ والبحْثُ عنه واللجُوءُ إليْه.

مُنعتْ وحُرمت أُمهَا مِنْ زِيارتهَا.

وللمرةِ الثانيةِ.

تحــرمُ مِنَ ابنتهَا، الأُولِى بعدَ دفنهَا ورحيلهَا والثانية بعــدَ عودتهَا. الأُولى كَانت طفلةً ميتــةً والثانية حيةً بعلةٍ مُسْتعصيةٍ ومَا عليهَا إلَّا انتظَار الميتةِ الثانيةِ.

وصدرَ الحُكْم.. وَبَدَأت مُحَاكمتها، يُحققونَ، يبحثُونَ، يفحصُونَ، وتتذكرُ وعبثًا تتذكرُ كلَّ شيءٍ.

وَرَفضت أشجَان مُقَابلتها فهِىَ السببُ الوحيدُ لمَأساتهَا تلكَ، فتحْقِيقًا لرغبتهَا الحَمْقاءِ فِى الأمومةِ أَوْدت بحياتهَا، وَألقــت بهَا فِى ذلكَ الأُتون المسْــتَعر مــنَ المَصِير، لتلقَى حَتفهــا أيةُ مَعذرةٍ تلكَ التِى تتوســلُ بِهَــا إليهَا لتحاججَ جهلهَا بهــذَا المصِير؟ إنهَا تحدَّتْ القــدرَ، المَوتَ، فماذَا جَنت الآنَ؟ ســوَى مَأســاةٍ مُتَحرِّكةٍ.. يُعَانِى مِنْ قسوتهَا آخرونَ لاَ شــأنَ لهمْ عَلى الإطلَاق، بلْ لاَ شــأنَ لهمْ بتلكَ الأُمومَة المزْعُومة التِى لا رحمةَ فِيهَا وَلاَ عَطَاء.

فقدْ كانتْ أنانية..

أخذتِ الأُم تكتبُ، تبحثُ، عَنْ أنتينورى، لكنهُ اختفَى وتركهَا لتلقَى حتفهَا وَمصيرهَا المُظلمَ وحدهَا. لمْ تَعُدْ تتذكرُ مِنْ أشــجَان سِوَى كلمةٍ واحدةٍ.. راحَت تدوِّى فِى رأسهَا

حتىَّ كادَت تصمُّ أذنيهَا: أنتِ لَسْـت أُمىِّ.. لَسْتِ أُمى.. لَسْتِ أُمِّى.

لمْ تقرأ أشـجَان وحدهَا أحداثَ حياتهَا المنشورَة أكثرَ مِنْ مرةٍ، بلْ طُويت ونُشِرت أوراقُ المجلّةِ عدّةَ مراتٍ الأمّ هىَ الأخرى.

وراحَتْ تتردّدُ أنباءُ العَالمُ الإيطالى الذِى استنسَخَهَا وهُوَ يعدُ العَاجزينَ عنِ الإنجـاَب بتحقيقِ آمالهمْ بعدَ مَا حَقّق مُعْجزته فِي الطفلةِ المُسْـتَحِيلَة. وتردَّدَ فِى الأوسَاطِ العَدِيد مِنَ التسَاؤلات:

هَل اسْتُنسخت أشجانُ منْ طفلةٍ حيّةٍ أَمْ ميتةٍ؟ واستبعدَ العلماءُ اسْتنسـاخِهَا مِنْ ميتةٍ رَافضينَ هَذِه الأقاويلَ بأنهَا مُجَـرد ادعَاءاتٍ. وَدَافـعَ أنتينورى عَنْ نفسِـه بنفْيِ هَذِه الوَاقعـةِ إلاَّ أنّ هذَا الأمرَ لمْ يُسَـانِده ويقـفُ مَعَهُ.. وصدرَ الحكمُ بمحَاكمتهِ لاستمْرَاره فِى إجرَاء تجَاربهَ العِلميّةِ عَلىَ البشرِ.. ولمْ يُعثرْ عليهِ بأىِّ حالٍ مِنَ الأحوَال.

كانَ كلُ شئٍ مَكتوبًا بِمُنتهَى الدقّةِ والعِنَايةِ.

وأكملتْه أشجَان كالتالِى:

استنساخ الموتى..!

الوجودُ والعدمُ..

رحلةُ الحياةِ التِى لاَ تخلُو لحظةً مِنْ ميلادٍ ومَوْتٍ..!

عُرسٌ وَتأْبين.. لقاءٌ ووَدَاع.

كلنَا محْكوم عَليه.. بالإعدام بالمَوْتِ.. بالفَنَاء.

فِى وقتٍ غيرِ مَعْلوم.. فِى مَكانٍ غيرِ مُنتظر..

بطريقــةً مجْهولةٍ.. بَلْ وغيرِ مُتَوقعةٍ أيضًا. فكانَ الحلُّ الوحيدُ أمَامنَا هُوَ البحثُ عَنِ الخلُود.

فِى دنيَا فَانية.. زَائلة. شيءٌ مريحٌ.. هوَ أنْ يبحثَ كلٌّ مِنَّا عَنْ خُلودِه، فِى ولدٍ يحملُ اسْمه، أو عملٍ يُمَجِّده.

وحبُّ الحياةِ غَريزة لا يمكنُ التخلُّص منهَا. فالحياةُ مفــردٌ مُؤنــث كالمرأة، لا تقــاومُ. تُغرِيــكَ. رغمَ المرضِ وَالكبرِ والعجْزِ. والصراعِ الدائمِ منْ أجلِ البقاءِ. إلاَّ إنهَا لاَ تقَاوَمُ.. لكنْ..!

لمَــاذا تُقتلُ عمْــدًا هَذِه الأم «ضحيــة» كلُّ هَذِه المرَّاتِ؟ وكأنَّ عذابَ البشرِ كُلِّه جُمِعَ ليصبَّ فِى نهرهَا وحدهَا دونَ

سائرِ الخَلْق كانتْ فِي كلِّ مرةٍ تعودُ لترتدِى ثوبَ الصَّبْر.. قسرًا وعمدًا. لكنْ.. ! ثَوْب الصبرِ هَذهِ المرةِ مُمَزَّق بفراقِهَا.. فراحَت ترقعهُ بالحُلْم الكبيرِ. ولكنْ حتَّى هذَا الحلْم لمْ يعدْ مِنْ حقهَا إذْ كيفَ ستَنجبُ فِي هَذَا العمرِ المُتقدم ومنْ هنَا بَدَأت الحِكَاية: حكايةُ أمٍّ... رَفَضَت بإصرارٍ شديدٍ وضْع طفلتهَا الوَحيدة.. الصَّغيرة، الَّتِى لمْ تتجَاوز الثالثةَ مِنْ عمرهَا بَعْد، فِي تابوتِ المَوْتِ.. وَظلّت تُطبق عليهَا بينَ أَحضانهَا خَوفاً مِنْ هَذا الحشْدِ الهَائل، والسَّوَادِ الذِى ملأَ قَاعَةَ البيتِ الفَسِيحَة. وبسرعَةٍ ارتدى نساءُ الجيرانِ وَالعائلةِ وَالأقاربِ رداءَ الحفلِ الذِى سيقامُ بعدَ قليلٍ لتأْبينِ طفلتهَا الوحِيدة فِي حفلِ وَدَاع.

تلكَ الحفلةُ الوحِيدةُ التِى يحددُ فيهَا لونَ الردَاء.

الكلُّ مُغَطى بالسَّوادِ.. وكلمَّا اقتربَ الأبُ «سرحان» مِنْ ضحيَّة، ليأخذَ الطفلةَ لإعدادهَا للدَّفنِ صَرَخَتْ وَراحَتْ تحدثهَا فِي هِيسْتريَا بَالغَة: لماذَا لا تصْرُخينَ..؟

قُولِى لَهُم إنكِ لَمْ تَموتى بعْد.. وإنكِ لنْ تتركينِى وحْدِى فِى هَذِه الدنيا. وَرَاحت تدورُ فِي أرجَاءِ غرفَةِ النوم بينَ

المقربينَ مِنْ أخواتهَا وزوجهَا مُتسَائلةً: أتسمعونَ بكاءهَا، هِيَ هَكذا دائمًا، لا تكفُّ عنِ البكاءِ والصُّرَاخ.

تضمهَا لأقصَى مَا تَستطيعُ وَهيَ تقولُ لهَا: إنِّي بجَانبك يَا حَبيبتي، ولنْ أتركك أبدًا ولَنْ يأخذكِ أحدٌ مِنِّي.

كَمْ مرَّ عليهَا مِنَ الوقتِ هَكَذا وهيَ تحاولُ إقْنَاعهم بأنهَا ليسَت مَيتةً وأنهَا مَازَالت تَعيش، والجميعُ يحاولُ نَزْع الطفْلةِ منْ بينِ ذرَاعيْهَا إلَّا أنها كانتْ تقاومُ بحيثُ لَمْ يستطيعُوا نزعَهَا مِنْهَا.

سَارُوا بهَا إلىَ طريقِ المقبرةِ، وَهِيَ لا تزالُ تحملهَا بينَ أحْضَانها. وَسَارت السياراتُ الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى، تحملُ الكثيرَ مِنَ الناسِ، مِنهم مَنْ تعرفهُم ومنهُمْ مَنْ لاَ تعرفُهم. كانتْ عيناهَا تحدِّقَان طوَالَ الوقتِ باندهَاشٍ بينَ هَذا وذاكَ وكأنهَا تقولُ لَهُمْ:

– مَاذَا بِكُمْ؟ ولِمَاذا كلُّ هَذا الحشْد الهَائل؟ وَإلى أينَ المَسِير؟ مَا لهذِه الزفَّةِ الوَاجمَة المُوحِشة؟

الجميعُ فِي صمْتٍ حَتَّى هِيَ. وبينَما وَصَلت السيارةُ إلىَ أوَّلِ طريقِ المقابرِ. كانَ طَرِيقا موُحشًا.. لاَ يَسْكنه سوَى الأمواَت.

فلماذا يأتونَ بهَا إلى هُنَا؟

وتتلفتُ يميناً وشمَالاً.. وعيناهَا الحَائرتانِ تُفتشـانِ فِي وُجُوههم عَنْ إجابةٍ. الجميعُ صَامت.. سَاكن.. لَمْ يكنْ هناكَ مَارَّة أو سَـائرونَ. المكانُ خالٍ تَمامًا مِنْ كلِّ الأحيَاءِ، لكنهُ مَلئ بالجُثثِ المَدْفُونة. وَأحَسّتْ أنَّ أشباحَ الموتَى ستطبقُ عَلى أنفاسـهَا، فصَرختْ بفزعٍ وهُم يمنعُونهَا الخُرُوجَ مِنَ السّـيارَة، وأمسـكَ بهَا اثنتانِ مِنْ أخوَاتِهَا، ومنعتاهَا مِنَ النـزولِ مَعَهُمْ. وقَـدْ مَلأ صراخُهَا أصداءَ المـكانِ، إلاَّ إنَّ ذلكَ لمْ يمنعهمْ مِنَ اسـتخدَامِ القوةِ فِي منعهَا مِنَ النزولِ، ونزعُوا الطفلةَ مِنْ بينِ ذراعيْهَا بِمَشقّةٍ هَائِلَة، وذهبَ بَاقِي الحشْدِ لدفنهَا فِي المقبرةِ التِي أعداهَا مِنْ أجلِهمَا، ولكنهَا سبقتهمَا إليهَا لتسكنهَا وَحْدهَا.

تعَالتْ صَرخاتهَا: لاتتركوهَا وحدهَا فِي هذَا المكانِ الموحشِ، فهِي صَغيرةٌ ولَنْ تسـتطيعَ البقاءَ وحدهَا. وبعدَ مُعاناةٍ شديدةٍ تسمّرتْ عيناهَا وهُمْ يُغلقونَ دونهَا نافذةَ القبرِ.

هالهـا الرعبُ وهم يغلقـونَ المقـبرةَ، وراحَت تتخيلُ طفلتهَا الجميلةَ وسـطَ الغرفةِ الموحشَـة.. فصرخَتْ وَهِيَ

تراهم يعودُون دُونهَا، وَعلت صرخاتُهَا وَملأت المكَانَ بعدَ أَنْ حالوُا بينهَا وبينَ الحيَاةِ.

وبمجردِ أنْ ركـبَ بجوارهَا زوجُهَا غَابت عَنِ الوعْى، وَلمْ تشـعرْ بذاتهَـا إلا وَهِىَ عَلىَ فراشِـهَا.. كلمَا فتحَت أهدابهَا أبصرَت أناسًا غيرَ هؤلاءِ الذينَ رَأتهم مِنْ قَبْل.

ربمَا غُربَاء.. أو أقربَاء.. لكنهمْ كثيرونَ. تبحَث نظراتُهَا عَنْ طفلتهَا وَسطهم، وعندَما تفشَلُ فِى العثورِ عليهَا تغيبُ مرةً أُخرَى عَنِ الوعْيِ، فِى سُباتٍ عميقٍ لتنفصِلَ عَنِ الواقعِ الأليمِ كَمْ مرَّ عليهَا منَ الوقتِ وهى عَلَى هَذِه الحَالةِ؟

ربمَا سَاعَات وَأيام وربمَا شُهورٌ وَأعوَام.. دُونَ جَدْوى.. حَتَى كادتْ تفقدُ بصَرهَا بكاءً عليهَا.

* * *

تعودتْ ألاَّ تبرحَ فراشَـهَا إلاَّ فِى أشدِ الحَاجةِ، ولكنهَا نَهضَـتْ مِنْ رَقدتهَا تسـيرُ فِى الغرفـةِ وكأَنَّ كلَّ ما فيهَا غَرِيب عليهَا.

أصبحَـت لا تألفُ شـيئًا فِى هَذَا المكانِ، وَقفت تشـدُّ ستائرَ الشُّرفة ورَاحتْ تنظُرُ إلى المَارةِ بألمٍ وحزنٍ، ثُمَّ عَادت

إلى فِرَاشـــها فوجَدَت الصحِيفةَ اليوميّةَ بجوَار الفرَاش فوقَ «الكُومُودِينـــوْ»، فراحَت تتصفحهَـــا دونَ اكتراثٍ. وَفجَأةً فتحَت عينيهَا لأقصَى مَا تَستطيعُ وَهِيَ تقرَأُ عنوانًا:

«أبو الأطفال المســتحيلين».. طبيــبٌ إيطَالى ينجحُ فِى إعادة الأمل للنساءِ المُسِنَّاتِ، ومرضَى العُقم، وَسِنِّ اليأس.. حيثُ استطاعت سيدةٌ فِى الستينَ مِنْ عُمرهَا إنجابَ طفلٍ بعدَ زِرَاعته بُويضَة فِى رَحِمهَا.

وتحرَّكـــت نظرَاتُ ضحية لتعيدَ مَا قرأته باندهَاشٍ مرَّة أُخرىَ.. وبسرعَةِ البرقِ لمَعَت مئاتُ الأفكارِ فِى رأسهَا فِى وقـــتٍ وَاحِد، وكمْ تمنىَ زوجُهَـــا عَودتهَا إلىَ طبيعتهَا بعدَ فقدانِهَا طفلتهَا الوَحيدة.. وبالقطْعِ لنْ يُرْفض طَلبهَا هَذَا، هَلّلت تنادِى عَليه:

فأســـرعَ إليهَـــا يملؤهَا الفرحُ والبهجةُ، فهوَ لمْ يســـمعْ صوتَهَا منذُ أمدٍ طويلٍ، فَســـألته بتلطُفٍ وَدعَةٍ وَهِىَ تُعطيهِ الصَّحِيفةَ ليقرَأ:

بِالطَّبع كانَ يعلمُ جيدًا مَا يُؤلمُهَا، وَقرأَ الخبرَ ونظرَ إليهَا فراحَت تحثُّهُ علـــى إتمامِهِ. وعندمَا انتهَـــى مِنْ قِرَاءته،

لمْ يتردّدْ لحْظةً فِى قبولِ رَغبتهَا التِى لمْ تفصحْ عنهَا بعْد، بالسَّفرِ إلى إيطاليَا.

– ضحية..

لماذَا لا تنسينَ، وتهدئينَ. ألستُ بجَانبكِ؟ كلُّ الجراحِ تلتئمُ يَا حَبيبتِى.

– إلاَّ جُرْحِى أنا. سيظلُّ ينزفُ مَا حَييتُ. إنَّها بعضٌ مِنّى، فَأَنَا تَائهَة بدونهَا، ولا أجِدُ سببًا لوجُودِى الآن، فَلمَاذَا أَحْيَا إذنْ؟

– مِنْ أجلِى أنا.. لقدْ كُنَّا سُعداء قبلَ إنجابهَا فلماذَا لَا تعودينَ مثلمَا كنتِ؟

– كانتِ الحبّ الكبيرُ فِى حَيَاتى.

ابتلعتْ دموعهَا.. وخرجَا يملؤهُمَا التفاؤلُ بعدَ أنْ حدَّدَ الطبيبُ الإيطالىُّ موعدَ زراعةِ البويضَة بعدَ إجراءِ كَافَّةِ التحاليلِ اللاَّزمةِ لذلكَ. مضتْ خمسةُ أيام بعدَ زراعةِ البويضَة الغريبةِ عنهَا، تحتَ الفَحصِ وَالتحاليلِ.

كانتْ قلقةً أكثرَ ممَّا يجبُ. وكمْ عددَ البويضَات التِى تمَّ زراعتهَا فيهَا دونَ جدوَى، رغمَ ارتفاعِ سِعرهَا البَاهِظ

إلاّ أنها سرعانَ مَا تسقطُ رافضَةً هذا الرَّحم المسنَّ الغريب سكنًا لهَا. وَفِي كلِّ مرةٍ تفشلُ فيهَا زراعة بُويضةٍ تُذْبحُ فيهَا أحلامُهَا، وتراقُ دماؤُهَا كمدًا وحزنًا عَلىَ ذلكَ.. وللمرةِ الثانيةِ تُعَاود غرفتهَا فِي الفندقِ معَ زوجهَا تجرُّ أذيالَ حَسْرتهَا، وتعاودُهَا ذِكرَى طفلتهَا الرَّاحِلة.

كانتْ تخفِي دموعَهَا بوسَادتهَا حتَّى لا يشعرُ بنحيبهَا، ولكنهُ سرعانَ ما يكتشفُ ذلكَ، وعبثًا يُحاولُ تهدئتهَا دونَ جَدْوى. وقررَا العودَةَ. إذْ ليسَ هناكَ مَا يدعُو لاستمرارهَا فِي رُومَا، وبعدَ أنْ حجزَا تَذْكَرتَي العودَة تدخلُ عليهما مُضيفةُ الفندقِ للمرةِ الثانيةِ، فتجدهَا عَابسةً مُتجهمَةً وهِيَ تقصُّ عليهَا سرَّ تعاستهَا فتقولُ لهَا بالإنجليزيّة:

– كيفَ لمْ يستَطِع أنتينورى وَهُوَ يفعلُ المستحيلَ، فهوَ أعلنَ منذُ فترةٍ عنْ قدرتهِ عَلى استنسَاخِ بشرٍ، ليسَ ذلكَ فحَسْب، بلْ واستنسَاخ الموتَى أيضًا؟!

هَللَت مِنْ أعماقهَا فرحَة مُستبشرةً، تمسكهَا منْ كفيهَا وتدورُ بهَا وسطَ الغرفةِ وهِيَ تقولُ: أعيدِى علىَّ مَا قلتهِ منْ فضلكِ، أحقًا مَا سمعتُ!! يستنسخُ الموتَى، ويعيدُهُم إلى الحياةِ، يَا إلهِى مَا أسعدنِى حَظًا بمَا قلتهِ.

وأغرتهَا الفكرةُ.

اللعبــةُ الجدِيــدةُ، والكوميديَا العلْميــة، وبَدا لهَا هذَا العَالمُ وَكأنه سَاحر، عجيبٌ، سَيحيلُ حلمهَا إلىَ حَقيقَة، لتكــونَ نهايةَ عَذابَها عَلىَ يَديهِ هُوَ. ثمَّ أجلســتهَا أمامهَا لتقصَّ عليهَا كلَّ شيءٍ بالتفصِيلِ، فقالتْ المُضِيفة:

– هذَا العالمُ تمَّ حَبْسُــه، وإغلاقُ المستشفَى الخاصّ بِهِ «الاستنسَــاخ والولاَدة» وعندمَا حاولَ استنسَاخُ بشرٍ وأعلنَ عــنْ وجودِ بُويضَــات مُخصبَة صِنَاعيًا، ويمكــنُ زراعتهَا فِــى النســاءِ، كانَ الأمرُ عندئذٍ هيِّنًا مِــنَ المُمْكنِ قُبوله أمَّا عندمَاَ أعلنَ عَنْ محَاولاتهِ فِى استنســاخِ بشــرٍ منْ خَلايَا جَسَديَة، كانَ الأمرُ مُريبًا بلْ وَمِنَ العسيرِ قُبوله بأىِّ حالٍ منَ الأحوالِ، لتجريمِ وحظرِ إجرَاء التجاربِ العلمّية عَلى الإنسَان.

وَحاوَلُوا مَنْعه ومحَاكمته وَدَافع عنْ نَفسِه بقوله:

إنَّ المُسْتنسخَ ســيكونُ مِنْ خلايَا أَحَد الأبويْن فَلا يعدُّ هناكَ أىُّ خلطٍ للأنسَــاب. وَإنمَا هِىَ مُجرد وَسيلةٍ لعلاجِ العقم المصَاب به أحدهمَا. لكنْ سرعَانَ مَا تسَربَت الأقاويل

والإشـاعَاتُ عَنْ مُحَاولاته فِي استنسَاخ الموتى. وعندئذٍ تمَّ إغلاقِ المستشـفى وَتقديمهِ للمحَاكَمَة. لَكنْ يُشاع الآنَ أنه يبحَث فِي هذهِ التجارب سِرًّا وَلمْ يتخلَّ عَنهَا بعْد، ولكنهُ دائمًا تحتَ المُرَاقبة. وتمَّ طَرْده مِنَ الجامعَةِ، وبدأ يستعيدُ عملهُ فِي عيادةٍ صغيرةٍ أسسهَا هُوَ وزوْجتُهُ، وَذاعَت شهرتُهُ بعلاج الكثيرِ منْ حالَات العقْم.

لـمْ تَنتبه ضحية لِكلِّ هذه التفاصيل، ولمْ تسـمعْ سِوىَ جملـةٍ واحـدةٍ تَوقَّفَ سمعهَـا عندهَا «استنسَـاخُ الموتَى» وَإعَادتها منْ جديدٍ إلى الحيَاة. كانتْ تتردَّدُ عَلىَ مَسْمعهَا دونَ سـائرِ التفاصيل الأخْرَى.

دخلَ زوجُهَا وَقَبْل أنْ يسألهَا:

– قالت كطفلةٍ تتشبَّثُ بلعبتهَا الجَديدَةِ:

مَـاذَا تفعلُ لوْ عَرفتَ أنَّ فقيدتنَا، طفلتنَا الوحيدةَ، مِنَ الممكنِ أنْ تعودَ إلينَا؟

رَدَّد بفـزعِ ظنًّـا مِنهُ أنّه قَدْ أصابهَا مَسٌّ مِنَ الشـيطانِ فَراحت تتخَـبَّطُ فِي رَغباتهَا وَآمالهَا:

– تعودُ إلينَا؟ وقدْ مَاتت!!

– لماذَا تنظرُ إلىَّ هكذَا، لستُ مَجْنونةً يَا حَبيبى..

– إذنْ أنَــا الــذِى جننتُ، عندَمَــا أتيتُ بكِ إلىَ هنَــا وطَاوَعْتك.

– كلَّا يَا حبيبِى، لقدْ أحْسـنتَ فِعْلًا، ولَكنْ تَصَوَّر أنه يمكنُ استنساخُ طفلتنَا وإعَادتهَا إلى الحيَاةِ منْ جديد!!

أرجــوكَ يَــا حبيبِى الغِ تذاكِــرَ العودةِ فعلينَــا مُقابلةَ الطبيــب مرةً أخرَى.. وَعرْض الموضُـوع عَليه، فإقناعهِ لنْ يكونَ سَهْلًا، لأنهُ يفعلُ ذلكَ سِرًّا، وَمُهمتك إقناعه بِشتىَّ الطرقِ ولوْ بلغَ الأمرُ أنْ تعطيهِ كلَّ ثروتنَا مُقابل ذلك، فكلُّ شئٍ يهونُ فِى سبيلِ إعادتهَا إلىَّ مَرَّة أُخْرَى.

وَبــدتْ لهُ زوجتُــه مُغرمَة بالفكرةِ والمغامــرَة، أكثر مِنْ رغبتهَا فِى طفلتهَا ومَا عليهِ إلَّا تحْقيق مَا تصبُو إليهِ حتَّى ولوْ كانَ شطَطًا.

قالَ الطبيب الإيطالى:

– مِنَ الممكنِ طبعًا إجرَاء اسْتنسَــاخٍ مِنْ أىَّ منكمَا بنزْعِ خليَّة جسدية كاملة العدد الكروموسومى (المادة الوراثية)، ولكنْ ســتقابلنَا ذاتُ المشكلةِ، ولكنْ حتَّى هَذِه المُشكلةِ مِنَ

المكـــنِ حلهَـــا بزِرَاعةِ هذه الخلية فى بويضَـــة مُفْرغة مِنْ مَادتهَا الوراثِيَّة الأَصْلية وَالتِى تزرعُ بدورها فِى رَحِم امرأة أخرَى بَدِيلة، لتكونَ بمثابةِ حَضَّانةٍ للجنين، وليسَ هناكَ مَا يدعُو فِى حَالتكِ للمغامرةِ باستنسَاخ الطفلةِ المَيِّتة.

– أليسَ بمقدوركَ إعَادة طفلتِى؟ فأنَا أريدهَا هِىَ.. هِىَ وَحَسْب.. فلماذَا تأخذُ مِنْ خلايانَا إذَا كانَ مِنَ الممكنِ أَخْذ خلايَاهَا هِىَ، لإعادتهَا هِىَ، هِىَ عَلى وجْهِ التحديدِ دونَ غيرهَا، لماذَا لَا تنقذُ امرأةً شَقِيّةً مِثلى، أرجُوك يَا دكتور، أتوسَّلُ إليكَ.

– إنهَا مُخَاطرة.

– لكنهَا ستنجحُ، قطعًا ستنجَحُ لأنَّكَ طَبيب نَاجِح...!

* * *

الطفلة حواء (EVA) المستنسخة..!

كانَ وَاجمًا طوالَ الطريقِ حَتّى فزعَ فِي وجهِهَا:

– مُستحيل مُشاركتك فِي هذِه المهزلةِ.

– أيةَ مهزلةٍ تلكَ التي تتحدثُ عنهَا؟

– أتظنينَ أنني سأظلُّ ألبّي رَغباتكِ تلكَ بدونِ تَفْكير؟ مَاذا بكِ؟ بلْ ماذَا دَهَاكِ؟ إنَّ رغبتكِ فِي الأمومةِ تجعلكِ تقولينَ شَطَطًا، وترغبينَ عجبًا، استنساخ ابنتنَا الميِّتة!! لمَاذَا؟ لسنَا أوّل، ولا آخرَ منْ تموتُ طفلتهمَا الوَحيدة!!

– لكنني الأمُّ التي ثَكِلت ابنتهَا ولنْ تُنجب سواهَا أبدًا.. فأنتَ لا تشعرُ بِي، فقلبِي يحترقُ بفراقهَا، وَلنْ أستطيعَ تعويضَهَا.

وراحتْ تنتحبُ وارتفعَ عويلُها ليملأَ كلَّ شيءٍ حَوْله فعادَ يُهدئُهَا قائلًا:

– يَا حَبيبتي، كلُّ نارٍ، تهدأُ لتصبحَ رمَادًا، ومنَ المستحيل أنْ تظلّ هكَذَا.

– لكنَّ نارَ فراقِهَا ستظَلُّ مُشتعلة لتأكلَ كلَّ مَا تبقىَ لِى فِى هذِه الدنيَا، حَتىَّ ألحقَ بِهَا.

وارتفعَ صوتُ بكائِهَا، فاقتربَ منهَا قائلًا:

– اهدئِى يَا حبيبتِى، وافعلِى مَا تشائينَ.

ومسحَ دموعَهَا ثم راحَ كعادتهِ يداعبهَا قائلًا:

– ألا ترينَ أننَا لأولِ مَرة ننزلُ رومَا، فهيَّا بِنَا نتنزهُ فِى شوارعهَا، علَّكِ تَنْسِينَ قليلًا، أوْ تهدَئِينَ.

أسرعَت مُهرولة إلىَ فراشِهَا قَائلة:

– كلَّا، لا أستطيعُ، فأنَا أستعجلُ الغَدَ، حتَّى أقابلَ الدكتور أنتينورى و..

قاطعهَا مُتعجبًا:

– لكن السَّاعة لا تزالُ الخامسةَ مساءً.

تثاقلتْ قَائِلة:

– كَمْ يمضِى الوقتُ بطيئًا، لكنَنِى سأحاولُ النومَ الآنَ حتَّى أتعجلَ الغَدَ، ولَا أريدُ أنْ استيقظَ إلاَّ غدًا.

ثُمَّ تحرَّكت عيناهَا الحائرتَانِ يَمينًا وشمالًا تَسْأله:

– أتظنُّ أنه سَيرفُض؟ يجيبهَا بثقةٍ وسخريةٍ كعادتهِ المعْهودة:

– يرفضُ! يرفضُ فرصَة جَاءته دونَ كَدٍّ أوْ بحْث، تَجْربه سَيتقاضَى عنهَا أجْرًا.

وعَاشتْ ساعاتهَا تلكَ فِى صراعٍ معَ الزمن، ما بينَ الأملِ والرجَاء.

وراحَت تتخيلُ طفلتهَا الوَحِيدة، تداعبهَا، تلاحقهَا، لتحركَ المياهَ السَّاكنةَ الرَّاكدةَ فِى بركتهَا لتبعَث فيهَا الحياةَ مِنْ جدِيد.

* * *

دخلَ أنتينورى وزوجتُهُ المعملَ، بعدَ أنْ قصَّ عليهَا كلَّ شىءٍ، فهىَ تُشَاركه فِى كلِّ شىءٍ، أخرجَت زوجَتهُ مِلفًا جَدِيدًا مِنْ أحدِ أدراجِ طَاولة المعملِ الطَّويلة والممتدةِ بطولِ الغُرفة، وكتبتْ عنوانًا وبيَانَاتٍ وَتاريخَ: «إيفا المِصْرية حَوّاء ٢٠٠٠».

وراحتْ تنقلُ وتدوِّنُ سائرَ التجاربِ السَّابقةِ، الَّتِى أُجريتْ مِنْ قبلُ لاستنسَاخِ البشرِ مِنْ عِظَامِ المَوْتى، والخلايَا

المُخزَّنةِ فى بنوكِ الأجنة والأعضاءِ وغيرهَا. كانتْ هذِه هِىَ المحاولةُ رقم أربعمائة بعدَ الألفِ فِى حالاتِ الموتى وَطَوت الملَفَّ فَرِحةً مُسْتبشرة وتوجَّهَت إلى أنتينورى قائلةً:

– هَلْ حددتَّ موعدَ السفرِ إلى القاهرةِ لنزْعِ العينَاتِ؟

– إننِى سَأسافرُ وأعودُ فِى ذاتِ اليوم قَدرَ إمكانِى.

وَلفَّت ذراعهَا حَوْله وهىَ تقولُ:

– كَمْ أنا مُتفائلة لهذِه التجربَة يَا أنتينورى، إنهَا ستجعلُ للمَوْت علاجًا.

– بلْ سيكونُ الموتُ مُجردَ مرْحلةِ انتقالٍ منْ جسدٍ لآخرَ، ليتحقَّقَ حلمُ الأبديّة.

وَغادرَ الثلاثةُ إيطاليا سَويًّا، عَلى أن يعودَ هو بمفردِه حَتَّى يتمَّ إعدادُ وتجهيزُ المادَّة الوِرَاثية وزرْعهَا فِى إحدَى البويضات المجمَّدةَ بعدَ تفريغهَا من مادتهَا الوراثية الأصلية وتوفيرِ الأنثَى البديلةِ لحمْلِ البويضة بعدَ إجراءِ جميعِ التحاليلِ والفحوصِ عليهَا والاتفاقِ معهَا. وَحذَّرهم بشدةٍ لخطورَةِ الأمرِ وعدمِ اطلاعِ أىِّ أحدٍ عَلى هذَا السِّر وَتلكَ التجْربة.

وبـدونِ تـرُّدد أو خوفٍ قَبلت المغَامـرَة.. فِي غَايةٍ مِنَ السِّـرِّية.. فالأمرُ بحاجةٍ إلى فتـح قَبْر الطفلةِ وعزْلِ المادَّةِ الوراثيةِ منهَا. مـرةً أُخْرى.. دَاعبتِ الأيامُ الأُمَّ، ولوَّحَت لهَا بإشـارَةٍ.. مُجَرد إشـارةٍ بعودةِ طِفلتهَا لتشـرقَ شمسُ حياتهَا مِنْ جَدِيد.

* * *

كانـتْ فِي كلِّ خطوةٍ عذاب دُونهُ عذابُ جهنَّمَ. هكذَا قُـدر لهَا وحدهَـا، أَنْ تعانِيَ مثلَ هَـذِه المعَانَاة، وكأنهَا الضَّريبةَ الفادِحَة لأحلامهَا الغَريبة.

فقدْرَ مَا نُحقق مِنَ أحلام قدرَ تَضْحياتنَا وَدفْع مُقَابل مَا نتمنَّى.. ولكنْ هـلْ رَغبتهَا تلكَ فِي الأمومَةِ كَانتْ مُجرد حُلم جميلٍ تسـعى لتحْقيقِه، أمْ كَانتْ رَغبةٍ شَـيْطانيةٍ تملكتهَـا، فَرَاحـت تعبثُ بهَا لتحطِّمَ فِي سـبيلهَا كلَّ شـيءٍ، مِنْ حواجـزَ وموانعَ وقيـودٍ. هَلْ تدفـعُ الغرائزُ والأنانيةُ الإنسـانَ للتضْحِيةِ بكلِّ شيءٍ فِي سبيلِ تحقيقِ مَا يَرْغب، نَاسـيًا، متجاهلًا الدِّينَ، العرفَ، المجتمعَ، القيمَ والناسَ؟!

وانبعثتْ رَائِحةُ الأمواتِ مِنْ بينِ القبورِ، لتثيرَ فى نفسهَا الرعبَ والذعرَ مِنْ جَديد.

تُحيطهَا الأشباحُ مِنْ كلِّ جانب، وَالخَرابُ والترابُ، وعواءُ الذئابِ ومواءُ القطَطِ. وَمِنْ بينِ كلِّ هؤلاءِ كانَ صراخُ طفلتهَا يدَوِّى، يُنَادِيهَا. لقدْ جفّت عيناهَا مِنَ الدموعِ، وَلمْ يبقَ بعينيهَا مَا يعينهَا عَلَىَ الحزن ويريحهَا مِن هذا القدرِ الهائلِ مِنَ العذابِ. وكيفَ استطاعَ الزوجُ إقناعَ حارسِ القبورِ بفتْحِ المقبرَة، زَاعِمًا أنَّ هناكَ سِحْرًا، وعَملاً مدفونًا وَلإبْطالِهِ لابدَّ مِنْ أخذِ شيءٍ مَا مِنْ جُثة الطفلةِ.

* * *

وَفُتحتِ المقبرةُ.. للمرةِ الثانيةِ.. لكنْ هذه المرةُ لمْ يكن الوقتُ نهارًا ونزلَ الحارسُ، وَصَعدَ حاملاً جثةَ الطفلةِ فهىَ الجثةُ الوحيدةُ الراقدةُ فِى تلكَ المقبرَة.

وقامَ أنتينورى بنزْعِ عدةِ عيناتٍ وقطعِ دقيقةٍ مُختلفةٍ مِنْ عظامِ الطفلةِ وبقَايَا مِنْ أعضَائها المُختلفةِ، ثمَّ وَضْعهَا فِى أنابيبَ دَقيقَةِ الحجْم، بعدَ أنْ كَتبَ عليهَا بياناتٍ ورُموزًا وحروفًا خَاصَّة بهَا، ثمَّ أعادَ الحارسُ جثةَ الطفلةِ

لموضعهَا لترقدَ منْ جديدٍ وسطَ المقبرةِ المظلمَة وخرجَ الثلاثةُ، وَاجمينَ، خَائِفِينَ، بلْ ويملؤُهُم الذعرُ والفزعُ.

أتراهُ فزعُ القبورِ؟ أمْ فزعُ الموتِ وَفكرتِهِ؟

وعَادتِ الأم مِنْ جديدٍ، لتعيشَ لحظةَ دفْنِ طفلتهَا مرةً أُخْرى. وكأنهَا فقدتهَا الآنَ. الآنَ فقطْ، وَقَدْ تركتهَا وحدهَا فِي الظلامِ الدامسِ، وسطَ – المقبرَةِ – الغرفةِ المُوحشة.

وَارْتعدَت..

يجرهَا زوجُهَا منْ ذراعهَا جرًّا.. فتسيرُ معهُ تائهَة الفكرِ، شاردَةَ الذهنِ، خَائفةً، مذعُورةً، وكأنهَا فِي عَالمٍ غيرِ ذاكَ العالمِ الذِى نحْيَاه. كانتْ لا تبرحُ غُرفتهَا.. واجمةً، شَاردَة.

تَجْلسُ فِي مَقعدَها الوثيرِ المعتادِ بجوارِ الهاتف. مُنتظرةً مِنْ حينٍ لآخرَ اتصَال أنتينورى ليخبرهَا بأَنَّهُ تَمَّ العثورُ عَلىَ المرأةِ البديلةِ التِى سيزرعُ فيهَا البويضَةَ الحاملة للمَادّةِ الوراثيةِ للطفلةِ المَيّتَةِ.

وبعدَ أسبوعٍ مِنَ الانتظارِ، دقَّ جرسُ الهاتفِ ليزفَّ إليهَا خبرَ العثورِ عَلىَ دنيا «الأم البديلة»، وَأَنَّهُ لابدَّ مِنَ السفرِ لتوقيعِ العقدِ بينهمَا.

كانَ لَا شـيءَ يعيـدُ إليهَـا فكرهَا وتركيزهَـا، إلَّا كلّ مَا يتعلَّقُ بعودةِ طفلتهَا للحَيَاة.

وَكانَ أنتينـورى وزوجتُـهُ لا يَقِلان حرصًـا وطمعًا فِى نجـاحِ التجربـةِ عنهَا فهِىَ تجربـةُ حَيَاتـه وَحُلمه فِى تحقيقِ الأبديَّةِ، وهِىَ حُلم حياتهَا فى تحقيقِ غَريزتهَا فِى الأُمومةِ.. فكلاهمَا حريصٌ عَلىَ إتمامهَا.

عرضَ أنتينورى عليهَا صُورةَ الأم البديلةِ التِى سَتحملُ البويضَةَ – أى الجنينِ مُسْتقبلًا – وَقرأَ بياناتهَا: – اسمهَا دنيا.

– عُمرها الخامسَة بعدَ العشرينَ عامًا.

– مُولعة بالسفَرِ. غيرُ متزوجَة.

ثم نزَعَ صُورة من الملف وعرضهَا عَلَى الأم وهُوَ يقولُ: – هَا هِىَ.. تلكَ صُورتهَا.

جذبتهَـا الأمُّ ويداهَا ترتعشَـانِ. ثُمَّ خطفهَا مِنهَا العالمُ وهُوَ يقولُ:

– أينَ صورَ الطفلةِ الميتة، أريدُ بعضَ صُورهَا المُخْتلفة.

فتحتِ الأمُّ حقيبةَ يدهَا وأخرجَت منهَا حَافظَةً جِلْديةً

صَغِيرةً بهَا الكثيرُ مِنْ صورِ طفلتهَا الرَّاحلةِ، فاختَارَ العالمُ منهَا خمسَ صورٍ مُختلفةٍ.

ثمُّ نَهضَ واقفًا وأردفَ يقولُ:

– والآنَ تستطِيعَانِ العَوْدة إلى الفندقِ لتستريحَا من السفرِ ولتهدئي يَا سيدتِي، وكلُّ شيءٍ سيكونُ عَلى مَا يُرَام، ولتكونِي هنا فِي الغدِ فِي تمامِ الثامنةِ صبَاحًا لتوقيعِ العقدِ وَدَفْعِ المُقابِلِ.

– كَمْ يبلغُ المبلغُ المطلوبُ كَمُقَدم؟

– فِي الواقعِ، طَلبت الفتاةُ عشرينَ ألف دولارٍ، كَاملًا.

اتسعتْ عينَا الزوجِ لأقصَى مَا يَسْتطيعُ.. فنظرَت إليهِ زوجتُهُ بتوسُّل أَلَّا يرفُضَ وَيخيبَ رجاءَهَا.. فابتلعَ غضَبهُ لمارسةِ تلكَ الحماقةِ التِي سيفقدُ فيهَا كلَّ رَأسمالهِ فِي الحياةِ إرضَاءً لَهَا.

كانتْ تشعرُ أنَّ الحياةَ بكلِّ مَا فيهَا، مِنْ أموالٍ لَا تعادلُ عَوْدة طفلتهَا إلى الحيَاة، فكلُّ شيءٍ يهونُ مِنْ أجلهَا، ولأولِ مرةٍ تتحدثُ ضحية بشيءٍ منَ اللهفةِ والأملِ، فمَا هِيَ

إلا شـــهورٌ مَعدودَات وَستولدُ ابنتهَا مِنْ جديدٍ، حبيبتهَا، وقَرَة عينهَا.

دخلتِ المعملَ. وجدَت فتاةً شقراءَ تجلسُ بثقةٍ وهدوءٍ، وبمجرّدِ نَظْرةٍ خَاطفةٍ عَرَفتهَا.. فقدْ رأَتْ صُورتهَا بالأمس.. فكيفَ تنســاهَا وَقد انطبعَتْ ملامحُهَا فِي ذاكرتهَا بمجردِ مَا وقعتْ عيناهَا عَلى صُورتهَا.

فابتسمَت.. لكنْ مَا بالهَا لَا تبادلهَا الابتسَام. كانتْ فَاترة، ويبدُو أنْ لَا شَيْءَ يعنيهَا فِي هذِه الحياةِ سِوَى جَمْع الأموال والسفر والتنزّه، والتمتُّع بمتع الحياةِ الوَقتيةِ الزَّائلةَ.

لَمْ تَقْــرأ الأمُّ أىَّ بندٍ مِنْ بنودِ العقـد، كَانتْ تنفّذُ مَا يقرُّهُ العالمُ دونَ تدخُّلٍ أَو اعْترَاض، مُتقبلةً كلَّ شَــىءٍ.. ليسَ اضطِرَارًا، وإنمَا بكلِّ الرضَا والعذُوبةِ واليسْر. أمَّا دنيا فقد قَبلتِ المقامرةَ والمقَايضةَ بكلِّ السعَادةِ والسرورِ.

وقبلــتِ دنيا المخاطرةَ بَــلْ المقامرَة ووَقّعــتَ دنيا عَلى العقــدِ وَكأنهــا تُوقّعُ عَلــى بطاقةٍ لحضُورِ حفلِ عَشَــاءٍ، أوْ عَلى قَبُولها رِحْلة فِي جولةٍ للخارجِ لمدةِ تســعةَ أشهرٍ، وَمَا العجبُ فِي ذلكَ؟

وعادَا مرةً أُخرى للقاهِرةِ فِي انتظارِ نتيجةِ الحَمْل.

* * *

وبعدَ إتمام زرَاعةِ البويضَةِ المخَصَّبة فِى رحِم دنيا الشَّقراء الإيطالية، كانَ كلُّ يوم يمْضِى يزيدهَا خوفًا ورهبَةً.

وراحَ الجنينُ ينمُو، يكبرُ، يتحركُ، بلْ ويتقلَّبُ ويلعبُ فَى أمانٍ.. فحيَاتُهُ مُتوقفةً عَلىَ حياتهَا هِىَ، وَبقاؤهُ موقُوفًا عَلىَ بقائهَا هِىَ.

وَلكنْ! أتراهَا تشعرُ بهَا الآنَ فتتألم لِألمِهَا؟ أتراهَا تحبهَا كمَا أحبتهَا هِىَ؟ حالـةٌ غريبةٌ كَانت تتملكُ دنيا، جَنينٌ يتحركُ بداخلهَا بينَ أحشائهَا، يتغذَّى مِنْ دمائهَا، تقيه السمومَ وتلفظهَا عَنْهُ، يعيشُ سَاكنًا هَادِئًا داخلهَا هِىَ.

تتغـيرُ معالمُ وتضاريسُ جسـدهَا تمهيدًا لأمومتهَا التِى راحتْ تسـرِى فِى عُروقهَـا دونَ أَنْ تـدرِى. جنينٌ مَا، غريبٌ عنهَا يملؤهَا شعورٌ بالحبِّ والشَّوْقِ إليْه.

كيفَ حدثَ هذَا؟ وهَلْ حَقًا هُوَ غَريبٌ عنهَا؟

لَمْ يخبرهَا أحدٌ عَنْ سِرِّ الأُمومةِ وَلغزِ تلكَ الغريزةِ الَّتِى رَاحت تبثُّ بداخلهَا حُبًا وخوْفًا لمْ تعرِفْهُ مِنْ قبلُ.

حَنينٌ مَا يسرى فِي أَوْصَالها.. يمنعهَا تسليمُ مَا فِي بطنهَا مُحَررًا مِنْهَا، تراهَا فِي شَاشةِ الفُحُوص الطبيّةِ مُغْمضة العينين فِي وضْعِ القرفُصَاء ويربطهَا الحبلُ السُّرى ليغذيهَا.

كمْ يمرُّ الوَقتُ سَرِيعا. تسعةُ أشهر مَضَت بسُرْعةٍ كيوم أوْ بعضِ يوم. وَكلمَا خَلت إلىَ نفسهَا تُحدثُ طفلتهَا الرَّاقدةَ فيهَا وَتلاطفُهَا وكأنهَا تسمعهَا، ثُمَّ فجأةً يملؤهَا الحزنُ عندمَا تتذكرُ أنهَا مُجردَ حضَّانةٍ صناعيّة لطفلةٍ سينتزعُونهَا بمجرّد ولادتها. كَمْ تمنَّتْ لَوْ استطاعَت أنْ تطيلَ فترةَ الحملِ وَتؤخرَ الولادة.. علّهَا لا تفقدهَا، ولا تفرطَ فيهَا.

ولكنْ! كيفَ السبيلُ إلىَ ذلكَ والعقدُ يحولُ دونَ تحقيقِ مَا تصبُو إليه؟ أىُّ شيطانٍ ذلكَ الذى ساعدهَا عَلىَ التوقيعِ عَلىَ مثلِ هذَا العقد، الذى سيحرمهَا مِنْ طفلتهَا؟

مِنْ أين نَشأ هذَا الحبُّ الكبيرُ الذى بَاتَ يجمعُهُمَا؟

تَضعُ كفيهَا عَلىَ بطنهَا وتهمسُ بتلطُّف:

– أتسمعينَ يَا حَبيبتى؟ متَى سَأراكِ تلعبينَ أمامِى وبينَ ذِرَاعى؟ متَى تأتينَ لأنعمَ بِكِ وبصُحبتكِ؟ إنَّنى عَلى

اســتعدادٍ للتضحِيَةِ بكلِّ شئٍ فِى سَــبيلكَ. وبإصرارٍ وعزْمٍ تقررُ: وَلَنْ يأخذوكِ مِنِّى.

مَا بالهَا لا تشــعرُ بــالألم الذِى تَشــعرُ وَتعانِى مِنْهُ كلُّ أمٍّ حَامــل؟ مَا بــالُ خوفهَا وقلقهَا يفوقُ وهنهَا فلاَ تشــعرُ بالوقتِ وثقلهِ، ويمرُّ ســـريعًا عَلى غيرِ العَادَة؟ لقدْ أحببتهَا قبــلَ رؤيتهَا. وكيــفَ أصْبحت تحملُ لهَــا كلَّ هذَا القدرِ الهائــلِ مِنَ الحبِّ وهىَ لمْ ترهَا بَعْــد؟ كَانتْ حالتهَا غيرُ كلِّ تلكَ الحَالاتِ التِى ألفناهَا لذوِى الحمْل، فلمْ تتمنَّ أنْ تَمرَّ فترَةُ الحملِ الشَّاقةِ بسرعةٍ كسائرِ النساءِ، فكلُّ حاملٍ تشعرُ بأنَّ الوقتَ يمرُّ بطيئًا، مُرْهقا، مُوهنًا ولكنْ مَا بالهَا لا تشعرُ بكلّ هَذَا ومَا بالُ الوقتِ يَمُرُّ هكذَا بسرعةٍ، والشهورُ تمضِى وَكأنهَا ثوانٍ، حَتَّى قربَ موعدهَا مَعَ الموْتِ.

أجلْ.. فهوَ بالنســبةِ لهَا الموتُ بعينــهِ، يومَ يأخذونَ ضنَاهَا ومولودهَا مِنْهَا. يُوقظها ضَمِيرُهَا:

– لكنْ هناكَ عقدٌ مُوَقع، وَتقاضَتْ عَلى ذلكَ المبلَغَ مقدمًا.

تضــعُ أناملهَا عَلى بطنهَا، تُحركهَا وكأنهَا تتحسَّــسُ طفلتهَا لتردَّ عنْهَا:

– أنـتِ.. أنـتِ وحدكِ التِى تسـمعينَ قلبِـى الآنَ، وتشـعرينَ بِى، فأنَا أعطيكِ وأغذيكِ مِنْ دَمِى وَجسـدِى، فأنتِ منِّى، أجلْ جزءٌ مِنِّى أنَا، ولنْ يأخذوكِ مِنِّى أبدًا.

يعودُ ضميرُهَا يَسْألهَا:

– لقدْ وُثق العقدُ، ببنودٍ وشروطٍ حَادَّةٍ، وَميعادٍ محدَّد، ولنْ تَستطيعِى الإفْلاَت، إنَّ مبادِئَ العقْدِ مَبْعثها القانونُ، والقانونُ هنَا حَاسِـم، رَادع، قَاطِع، وأنتِ وَافقت وقبلتِ وقبضتِ، فلنْ تَسْتطيعِى الإفلاتَ منَ العدالةِ وتنفيذِ شروطِ العقْد.

– أية عدالةٍ تتحدثُ عَنْهَا؟

– عدالةُ تنفيذِ العقْدِ، أمْ تظنينَ أنَّ الأمرَ هينٌ وسـيمرُّ بهذهِ البسـاطةِ التِى فِى مَخْيلتك، وأنَّ المسألةَ كلَّهَا لا تزيدُ عَنْ كونهَا مُجرد رِحْلةٍ لإنجَابِ طفلةٍ غريبةٍ عنكِ.

– إنهَا طِفلتى أنَا.

– سـتكونُ نسـخةٌ طِبق الأَصْـل مِنْ أُمهَـا، صاحبةُ البويضَة المحْمولَة.

– وهَلْ يصحُّ أنْ تكونَ الأمُّ هِىَ البويضَة!!

فهناكَ العديدُ مِنَ البويضَاتِ التِى تفقدُ مِنْ كلِّ سيدةٍ أَوْ أُنثَى دونَ جَدْوى، هَلْ نَطلِقُ عَلى كلِّ بويضَةٍ لقبَ الأُمِّ.

– لكــنَّ البويضَــةَ حَاملة المادةِ الوِرَاثيةِ التِى ســتورثُ فيمَا بَعْــد أيضًــا غَريبة..مجْهولَــة.. وأنتِ مُجــرد وعَاء للبويضَــة المجْهولة حَاملة المادّة الوراثيّــة للطفلة المِيِّتة، فأنــتِ حَضَّانــة، مُجرَّد وعَــاءٍ مُكيفٍ وَمُجَهــز طَبيعيًا، وعَاءٌ مُؤَقَّت.

– مُسْتحيلٌ، فأنا حَاضِنَة ولستُ حَضَانة. أنَا أمٌّ.

* * *

الأم البديلة ..!

وحانَ وقتُ الميلاَد والموتِ..

مَا باله يأتِي مُسرعًا هَكَذا، وكأنه يتضَافرُ مَعَهم عَلَى قتلهَا! وَجَاءتِ الطفلةُ خَمْريَّة اللَّون، سَوْداء الشعر، وَارتفعَ صُرَاخها.. ونهضَت دنيا مِنْ فراشهَا بلاَ أوجَاع أوْ آلام تبحثُ عَنْ طفلتهَا، وقبلَ أنْ تندفعَ خَارجَ غرفتهَا أعادوهَا إليهَا قائلينَ: اسمهَا أشجَان.. هَا هِيَ.. وعليكِ مُراعاتها حَتَّى تأتِي أمها.

وكَمْ تمنَت ألَا تأتِي تلكَ السيدةُ التِي تزعمُ أمُومُتها.

أخفَى العالمُ أنتينورى خبرَ الولادة عنِ الأُم حتَّى تستطيعَ المولودةُ أخذَ قسْط منْ لبنِ الأُم البديلة، وبعْدَ الاطمئنانِ عَلى حَالةِ المولُودةِ طلبَ مِنَ الأمِّ السَّفر والحضُور لتتسَلَّمَ بضَاعتهَا الطفْلة المُستنسخة أشجَان.

التقتْ دُنيا بالعالم أنتينورى وهو يقومُ بفحصِ المَوْلودةِ فِي أوقاتٍ مُحدَّدة مِنَ السَّاعات، ويدونُ، كاتبًا، مُلاَحظاته فِي ملفٍّ إيفَا حَوّاء المِصْرية.

سألتهُ دنيا:

أليسَ مِنْ حقيَ التَّرَاجع وردِّ المبلغِ الذِى تَقَاضيتهُ مُقابل أنْ يتركُوهَا لِى؟!

نظرَ إليهَا أنتينورى مُندهشًا:

– مَا الذِى تقولينَ؟ بالقطعِ مُستحيل، لأنهَا ليستْ ابنتكِ وَإنماَ ابنتهَا هِىَ.

– لكنهُ لولاَ وُجُودى وَبَقائى عَلى قيدِ الحياةِ طوَال فترةِ الحمل مَا خرجَت إلى الوجُود!!

– كانتْ ستَجدُ غيركِ لِتؤَدى الدورَ والمهمّة التِى قمتِ بهَا.

– لكنْ!

– لكنكِ سيدتى قبلتِ العرْض، وليسَ هناكَ مجالُ للتراجُع يَا عزيزَتى.

وكمْ مِنْ مرةٍ تحاولُ دنيا الهَرَبَ مِنَ المستشفَى دونَ جَدْوى!!

نجحَتِ التجربةُ وَأعلنتِ الحربَ عَلى الأمّ منذُ نَجَاحهَا، ومرَّةً أُخرى خَرجت أشجَان إلىَ الوجُود بعينيهَا

السـودَاوَيْن، وشـعرهَا الأسـودُ الناعمُ، ولونهَا الخَمْرى الجَذاب، وَضحْكتهَا الشـقيّة السّـاحِرَة.. لتخطفهَا الأَمُّ البدِيلَـةُ الحَاضِنة بحجَّة حَمْلها وَهنًا عَلى وهْن، وعادتِ الأرضُ لتهتـزَّ مـنْ تحتِ قدميهَا مِنَ جديـدٍ لتصارعَ مِنْ أجلِ ابنتهَا.

واندفعتِ الأم فِي اتجاهِ الطِّفلةِ المَوْلُودة، تزفهَا الفرحةُ وبسـرعةٍ خطفتهَا دنيـا مُبتعدةً بهَا عـنِ الجميع حيثُ اجتمعَ الزوجُ والطبيبُ وزوجُه ودنيَا الأمُّ المدّعية.

وفوجـئَ الجميعُ بـأنَّ دنيا ترفعُ مُسدسًـا عَلى الجميع وَتُهددهم بالقتلِ إذَا تجرَّأ أَحدٌ واقتربَ مِنْها، لأخْذِ الطِّفلة.

عـالجَ أنتينورى الموقفَ بحكمةٍ ورشـدٍ مهدئًا الأُمَّ تارةً وَمُهدئًا دنيَا تارةً أُخْرى. فقالَ للأُمِّ:

– لا دَاعى لاسْتِخدام القوةِ والعنفِ معهَا، فالطفلةُ مِنْ حَقكِ وَأنَا شاهدٌ عَلىَ ذلكَ.

وخرجَ الجميعُ بعدَ أنْ تركُوا خَلفهم زوبعَةً مِنَ العَاصِفة لمْ تهـدَأ بَعْـد. ضمّت دنيا أشـجَان إلىَ صدرْهَا بحنانِ أمٍّ لَمْ تَعْهده مِنْ قبل، لقدْ فقدتْ حبيبها مِنْ قبلُ، كانتْ تظنُّ

أنَّ حبهَا السَّابقَ شملَ العالمَ كلَّهُ بِشَتىَّ أَنواعِهِ وبكلِّ صُوَرِهِ وَأَلوانــهِ. ولكنْ ما بالُ هذَا الحُــب الكَبير يفوقُ الخيَال، الحبُّ الذى تشــعرُ بِهِ معَ هذِه الطِّفلــة التِى لاَ حولَ لهَا وَلاَ قوةِ.

مُســتحيلٌ أنْ تتنازلَ عنهَا وهىَ التىَّ سَكنت بداخلهَا هِىَ وحدَهَا. وَكبرت، ونمَت داخلهَا دونَ الآخرينَ.

وقــررَت الأم ألاَّ تَعودَ للقاهرةِ بــدونِ طفلتهَا واندلعَت الحربُ مِــنْ جَديدٍ. وَجَــاءت معركتهَا الثانيــةُ لمواجهَة الحيَــاة، لتصــارعَ مِنْ أجــلِ طِفلتها وَرُفع الأمــرُ للقضاءِ للفصْلِ فِى المسألةِ. وفِى بلدِ العجائب يُمكن فعْلُ أىَّ شىءٍ وتحقيقِ أىَّ حُلم إلاَّ تَجاوُز القانُون.

وتمَّ التحفُّظِ عَلى الأمِّ البديلَة – هكَذا يُســمونَ صَاحبة الرحم المؤَجَّر– والطفلةُ تحتَ الحراســةِ فِى المُسْتشــفى، ووَكلَــت كلٌ منهما مُحَاميًا للدفاعِ عــنْ حقهَا فِى المْولُودة الصغيرةِ.

اقتربَ أنتينورى منَ الأم الشرقية قائلًا لهَا أثناءَ زيارتهَا لرؤيةِ الطفلةِ:

– إذا أردنَـا أنْ نتحّدثَ بالحقِّ وَالواقع، فَالحقيقةُ أنَّ الطفلةَ ليسَتْ مِن حقكِ وإنَّما مِنْ حَق دنيا.

فزعت الأمُّ لقُولتهِ تلكَ فرددَتْ مُتسَائلةً بغضَب: كيفَ؟

– فأنتِ لستِ صَاحبة البويضَة، كمَا أنكِ لسْتِ صَاحبة المَادة الورَاثية.

– وَهِيَ كذلكِ.. ليست صَاحبة المادة الوراثية وَلا البويَضة.

– لكنهَا حَملتها تسعةَ أشهر فِي رحمهَا.

– وعـاءٌ، مجرّدُ وعاء لبويضَة لاَ يربطهَا بهَا أيةُ صلَة، حضَانة، مُؤجّرة، وقَدْ تقاضَت ثمنًا لذلكَ.

– إذا سـلّمنَا بأنهَـا كانـت حَضَانة، فلهَـا دورٌ فِي إنجابهَـا، أمَّا أنتِ فليسَ لـكِ أىُّ دور، وفِى هذِه الحالةُ يصبحُ لهَا الحَقُّ فِى الطفلةِ أكْثرُ مِنك.

– كيفَ؟ لمْ يكنْ لِى أىُّ دور؟ ألستُ سببًا فِى هِذه المادةِ الأَصْليةِ الوراثيةِ التى تَشكلتْ منهَا الطفلة؟

بثقةٍ يُجيبهَا: كلاَّ سَيدتى، فالمادَّة الوراثيةُ ليستُ مَادتك، ولكنهَـا مادة غَريبة عنكِ، لأنهَا نـادة وأصْل للطفلةِ الراحلةِ المنزوعةِ منهَا.

– لكنهَا طِفلَتِي.

– علميًّا ليسَـت المُسْتنسخةُ طِفلتكِ، لأنهَا توأَمُ طفلتكِ أَىْ شقيقةُ ابنتكِ، فلستِ أُمٌّ لهَا.

– مُسْتحيل.

– الواقـعُ– دائمًا– مُؤلم وَمُفزع، وإذَا فُحِصَ هذَا الأمرُ واكتشـفَ أنَّ المادةَ الوراثيةَ ليسَـت مَادتك سيكونُ الأمرُ صعبًـا للغَايـة وَفِى هِذه الحالةِ، لنْ يكـونَ هناكَ مفرٌّ مِنَ الإذعانِ للحكْم أوْ تسويَةِ الأمرِ بالتفاهمِ مَعَ أمهَا.

– لا تقلْ أُمهَا. فأنَا أمهَا.

– سيدتِى، ليسَ لدينَا متسعٌ مِنَ الوَقتِ للعنادِ وَالكبْرِ، فَالمسْـألةُ تزدادُ تعقيدًا ولابدَّ مِنَ المرونةِ للبحثِ، والوصولِ إلى حلٍّ مَا، ولقدْ أوْضحتُ لكِ المسـألةَ، والتفتَ متوجهًا للخروجِ مِنَ المعمَل.

أسْرَعتْ تلاحقهُ قائلةً:

– أرجـوكَ. مَهْـلاً، فمَـا الحـلُّ إذَنْ؟ وهلْ يمكنُ أنْ تحُـولَ دونَ الكشـفِ عـنْ ذلكَ، أقصـدُ، الأصولَ الوراثية؟

– بالقطع مُمْكن.. وسيتمُ طَرحُ هذه المسْألَة وعرضهَا عَلىَ المسْتشارينَ العلْميينَ لفحْص الخَريطةِ الورَاثية لكَلٍّ مِنَ الأم وَالطفلةِ المسْتنسخة وربمَا للأبِ أيضًا، وهذَا أمرٌ ليسَ بحَاجة لوقتٍ طويلٍ، ولكنهُ سيتمُ بأخْذِ خليةٍ مِنْ كلٍّ منهمَا، ولتكنْ عينةٌ مِنَ الدم وعزلَ المَادة الورَاثية لكلٍّ منهمَا الطفلةُ والأبُ، وفحصُ الخَريطةِ الوراثيةِ، وَمُطابقةِ تلكَ الخريطَة الورَاثية للطفلةِ لكلٍّ مِنَ الأمِ والأبِ. وقطعًا سيسفرُ الكشفُ عنِ الحقيقةِ.

حَملت دنيا طفلتهَا بينَ أحْضَانها تكادُ تُخفيهَا، وَجَاءت ضحية الشرْقيّة لتبدأ معركتهَا مِنْ جديدٍ، والمعركةُ هذه المرةُ معَ امرأة غَرْبية فهِيَ معْركةٌ وحربٌ ليسَ بينهمَا تَكَافُؤ.

امرأتان.

ضحية..! تعيشُ فِي ظلِّ رجلٍ.. تفكرُ بقلبهَا وتحبُّ بعقلهَا. وكلُّ رَأسمالهَا فِي الحياةِ هو العَاطفة، فهِيَ تعيشُ مِنْ أجلِ الرجلِ أولًا ثُمَّ مِنْ أجلِ أطفالهَا أولًا وأخيرًا.

أسيرةُ هذا الحُب. ومعَ امرأةٍ عَاطِفيةٍ جَميلةٍ، لا تعرفُ مِنَ الدنيا شيئًا سِوَى الحبِّ والعطَاءِ وانتظَارِه، والعيشِ مِنْ أجْلِهِ. تارةً فِي صُورةِ رجل وأخرَى فِي صُورةِ طِفْل..!

المُهِم.. أنهَا تعيشُ مِنْ أجلِ آخر وَفِي ظلِّ آخرَ، وليسَ مِنْ أجْلِ نفسهَا.

فالحربُ هنَا ليَست مُتكافئة، إذْ كيفَ ستتعارك امرأتَان؟ امرأةٌ وَاقعيّةٌ قويّةٌ، تعيشُ مِنْ أجلِ نفسهَا وحسْب، وتسخّرُ كلَّ الأشياءِ لخدمتهَا، حُرّةً.. امرَأة تَختارُ، بلْ وتملكُ القدرةَ عَلى الاختيارِ.

وامرأةٌ تخضَع لكلِّ طريقٍ تقذفُ بهَا فيهِ الحيَاة. والحياةُ يحكمهَا قانونُ البقاءِ للأقوَى. وليسَ هناكَ قانونٌ مِنْ أجلِ الحبِّ والرقِّ والعبُودية.

* * *

وَحكمتِ المحكمةُ بأنَّ الطفلة ابنةٌ لصَاحبةِ البويضَة الحاملة للمادة الوراثية وَمنْح السيدةِ البديلَةِ حَق رعايتهَا وإرضاعهَا فِي حَالةِ مُوَافقةِ الأمِّ فقطْ.

صَرَخت دنيا مُستحيل. إنهَا ابنتِى أناَ. وجرَت بطريقةٍ عَشْـوائية يمينًا وشمالاً.. بحثًا عنْ مَـلاذٍ يَحْميهَا مِنْهم. ونزعُوا منهَا الطفلةَ بعنفٍ، وَصرخت صَرخة مُدَويةً أفزعَت كلَّ مَنْ فى القَاعة. وَصَرَخت الطفلةُ بدورهَا وكأنهَا ترفضُ هذَا الحُكـم وَتوالت صرخاتُها بحثًا عَنْ هَذَا الدفءِ الذِى سـرعانَ مَا افتقدتهُ بحرْمَانهَا مِنها. وبسـرعةٍ ذَهبت الأم تحمـلُ الطفلةَ وقَدْ طلبتْ تعيينَ حرَاسـةٍ عليْهَا خوفًا مِنَ اختطافِ الطفلةِ، حَتَّى يَصعدُوا الطائرةَ وتقلَعَ بهمْ وَفشلت دنيَا فِى مُحَاولة مُرَافقةِ الطفلةِ.

كانت الفرحةُ تغمرُ الأمَّ مِنْ كلِّ جَانبٍ، وبسُرْعةٍ حرْمَا أَمتعتهمَا، ولكنْ مَا بالُ الطفلةِ لا تكفُّ عَنِ البكاءِ والصرَاخ وبمجـرَّد وُصُولهم إلَى الفنـدقِ. أعلنـتِ الأم البحْثَ عَنْ مُرضِعةٍ مُقيمَةٍ للطفلةِ المولُودَة.

* * *

وكَمْ عَـدَد المُرْضعَات اللاتِـى تمَّ فَحْصهنَّ وإجـرَاءِ التحَاليل عَليهـنَّ، لكنَّ الطفلةَ لمْ تسـتجِبْ لإحدَاهنَّ رافضَـة كلَّ الأثداءِ الغرِيبةِ عنهَا، وكأنهَا تبحثُ عَنْ رَائحةِ أمهَا.. وَدفءِ صَدْرهَا.

وكلمَـا اقتربـتْ مُرْضِعةٌ مِنْ الطفلـةِ وقدّمَت لهَا ثديهَا ذعِـرت الطفلةُ وأبعـدتْ فَمَهَا عنهَا.. نَافـرةً منهُ. مُعْلنةً بذلكَ الرَّفْضَ التَّامَّ بالصرَاخ وَالبكَاء.

أبلغَت الأُم أنتينورى بذَلكَ.

حَذّرَهَـا منْ عـدم إرضَاع الطفلـةِ طوالَ هَذه السـاعَات المتَوَاصلَـة وبأنهَا مِنَ المكـنِ أنْ تفقدهَا. وَأنهُ لاَ حلَّ لديهَا سوَى الإذعَانِ لرَأيهِ بأنْ تتخذَ مِنْ دنيا مُرْضعَة وَمُربية مُقيمةً دَائمَة لهَا.

وَلَمْ يكنْ هناكَ مَفرٌّ مِنَ الإذعَانِ لاقترَاحِه، والاسْتسْـلام للأمرِ الواقع.

ترفعُ دنيا سمّاعةَ الهاتفِ. تبتسِـمُ مُهَللة وهِيَ تمسحُ دموعَهَا قائلةً:

– مُجَرد مَا يقْطعُه الطريقُ مِنْ وقتٍ سَأكونُ عنْدَكم.

لمْ تفكـرْ أوْ تتردْ أوْ تأخذَ أيَّ شـيءٍ مِنْ أمْتعتِهَا، فقطْ فتحَت درجَ كتبهَا وَبعثرتْ مَا بهِ بحثًا عَنْ جوازِ سـفرهَا. جَمَعت كلَّ مَا لديهَا مِنْ نقودٍ وأسـرعتْ تَركبُ سَـيَّارتهَا يُرَافقهَا مُحَاميهَا.

وأخذت فِى أثناءِ طَريقهَا للفندق تشـرحُ له المهمةَ التى توكلهَا لهُ، وكيفَ سَـيُحولُ رصيدهَـا إلى القاهرةِ وَيصفِّى كلَّ متعلقاتهَا مِنْ بَيْع السيَّارَةِ والبيتِ، وليتركْ فقط البيتَ الصَّغيرَ الذِى يقعُ فِى (قرية تيبلى إحدى ضواحى روما) ليبقَى تحتَ رِعَايته دائمًا.

دخلـتِ الفندقَ مُتوجهـةً للجنَاحِ الـذِى تنتظرهَا فِيه طفلتهَا. دخَلت مُتوجهةً فِى اتجاهِ الصراخِ والبكَاء.

فهـىَ وحدهَا التِى لاَ تخطئُ فِـى تمييزِ صوتِ طفلتهَا وَبُكائهَـا.. كانـتْ تحمـلُ بـينَ يديهَـا القـردَ الصغيرَ الشَّقى صديقهَا.

أسْـرعت بفتحِ الغرفةِ دونَ اسـتئذان، وَجَذبت الطفلةَ بينَ أَحْضانهَا.. وَ بسـرعةٍ هدأت الطفلةُ وكفَّت عَنِ البكاءِ والصراخ.. وَمَسحت دموعَهَا فِى صدرهَا كقطةٍ تختبئُ فيهِ بَحْثًا عَنْ طعامهَا ومأوَاهَا.

جلستْ دنيا ترضعهَا وهِىَ تضمهَا بِحبٍّ لمْ تعهدهمَا مِـنْ قبـلُ، وكيفَ لا تسـعدُ وقـدْ ردتْ إليهَـا روحهَا بعَوْدتهَا؟

غارتِ الأمُّ منْ هذَا المشـــهدِ البديعِ الذِى حُرمت منهُ، ونظرتْ إليهَا نظرةً لا تخلُو مِنَ الحسدِ، علاوةً عَلَىَ الحسرةِ التىَ امتلأتْ بهَا عَيناَهَا.

تحدثَتْ دنيا بهُدُوءٍ قائلةً بالإنجليزيّة:

– أرجُو منكُم أنْ يكونَ الســفرُ غدًا.. ليلًا حتَّى أتمكَّنَ مِنْ تَصْفيةِ مُتعلِّقاتِى، وَتسليم المحامِى بقيةَ أوراقِى لمتابعةِ بعضِ الشئونِ التىِ سَأتركُهَا لهُ.

اقتربـتْ منهَـا الأمُّ قَائِلـة بَلهجَـةٍ تملؤهَـــا الغيرةُ والحقدُ والتحدِّى:

– لا دَاعى لتصْفيةِ كلِّ متعلقاتِكِ، لأنكِ سَتعيشِـــينَ حَتَّى فِصَالَ الطِّفلةِ.. أىْ لمدةِ عامَيْنِ فقطْ. وَسنطلقُ بعدهَا سَراحكِ.

لَمْ تعرْ دنيا كلماتِهَا أدنىَ اهتمَام وَقَابلتها بدونِ اكتراثٍ فقدْ كانتْ فِى حالةٍ منَ السعادةِ والنَّشوةِ بحيثُ لاَ تودُّ أنْ يعكرَ صفوهَا أحدٌ. جذبَ الزوجُ امرَأتهُ مِنْ مِعْصمِهَا بقسوةٍ وهو يَقُولُ:– ضحيّـــة، مَاذا بكِ؟ لقدْ أنقذْت الطِّفلةَ، وقدْ كادتْ تضيـــعُ منْ بين أيدينَـــا، ألا تحمدينَ اللهَ عَلَى كلِّ هذَا؟ ألا تصلينَ شـــكرًا لِلّه لسَـــترِه عَلينَا بعدمِ كشفِ الأمرِ بفحْص وَمُطابقةِ الخريطةِ الوراثية.

فزعَت، صَارخة فِي وجْهـهِ، وهيَ تضعُ أناملَها عَلى فمهِ منْعًا لإتمَام أقواله تلكَ:

– كُـفَّ عَنْ هَذا الحديـثِ، وَانسَ هَذا الموضُوعِ تمامًا، وَلاَ ترددهُ مُطلقًا، حَتَّى بينكَ وبينَ نفسكَ.. أتوسلُ إليكَ، لا تُضيِّعْ مَجْهودنَا.. وَإلا سيصبحُ هباءً منثُورًا.

– إذَنْ كفِّـي أنـتِ عِنْ هذِه القسـوةِ لدنيـا وَاعْذِريهَا يا عزيزتِي، لأنهَا أُمٌ.

– أمٌ، أنـتَ أيضًا تخالهَا أمًا لطفلتِي؟ كيفَ تكونُ هيَ أُم وَأناَ منْ أكونُ إذَنْ؟

– لكنهَا حملتهَا وهنًا عَلَى وهنٍ، تسـعةَ أشهر فهيَ أمٌ وَلا شـكَّ فِي ذلكَ، ألا تفهمِينَ؟! الأمُّ هِيَ التِي تحمِلُ، وتلدُ، وترضعُ. وَيَكْفيك شـاهدًا على ذلكَ الحُب مَا فعَلته مِنْ تضحيةٍ فِي سَبيلِ طفلتهَا.

– أيَّةَ تضحيةٍ تلكَ التيَ تقصدهَا؟

– تضحيتهَـا ببلدهَا ووطنهَا، وَتصفيـةُ كُلّ مُمْتلكاتهَا لتأتِـيَ فِي صُحْبتهَا! ألا يكْفيكِ هذَا دليلًا وشـاهدًا عَلَى أمومتهَا؟ لماذَا تنكرينَ كلَّ ذلكَ؟

ثُـمَّ أردفَ قائلًا: ضحيَّـة، حَبيبتِي، إذا كنتِ تحبينَ الطفلةَ فلابدَّ مِنَ الوفاقِ مَعَ دنيا وَلَا تكدرينَ حياتَهَا، لأنَّ الطفلةَ يجبُ ألَّا ترضَعَ لبنًا مُكدرًا بالحزنِ والشقاءِ.

فعلينَا، كلنَا، تحمُّل كُلِّ شـيءٍ فِي سبيل هَذه الطِّفلة، لأنَّها غَاليةٌ، بَاهظَةُ التكَاليفِ. كلفتنا تلكَ المقامرَةِ الكثير. ولاَ نعرفُ حتىَّ الآن أنَّ مَا فعلنَاه حَلالًا أَمْ حرامًا؟!

انفعَلت للهْجَته تلكَ قائلةً:

– ماذَا بكَ؟ بلْ ماذَا أصابكَ؟ ألنْ تكفَّ عنْ هَذَا الهُراء، كلُّ شـيءٍ تمَّ بإرادَة الله، لأنهَا مِنَ ابنتنَا، وليسَـت غريبةً عَنَّا فليسَ هناكَ مِنْ خلْطِ أنسَاب، وأرجوكَ دَعْ هَذَا الأمرَ وَلَا تفكِّرْ فيهِ، وفكرْ فِي صَغيرتنَا تلكَ، التِي ستكونُ نسخةً طبقَ الأصْلِ منْ فقيدتنَا الصَّغيرةِ، كَلاَّ بَلْ ستكونُ هِيَ نفسهَا، فلم تعدْ رَاحِلة الآنَ، لأنهَا عَادت إلينَا بعدَ طُولِ غِياب.

تَغـيَّرتْ دنيا، وَتبدلتْ أحوالُهَا، عَاداتهَا، سـلوكهَا، قطعًا كانَ وَاجبًا كُل هذَا التغيُّرِ ولمْ يُؤثر عليهَا شـيءٌ فِي هـذِه الدنيا قدرَ مَا أثَّرتْ عليهَا تلـكَ الطفلةُ، مَوْلودتهَا، مُنذُ حَمْلها بهَا.

وتغيرَ فيهَا كلُّ شيءٍ، كَانت لا تعرفُ مَعْنَى العطَاء، فتعلّمتهُ دونَ مُعَلم، كانتْ تُجيدُ لعبةَ الحيَاة. تُسخرُ كلَّ شيءٍ مِنْ أجلهَا، وَفجأةً أصبحَت أمًّا، عَلّمتهَا الأمُومَةُ مَا عَجزت عَنْ تعلُّمِه، مِنَ الحيَاة.

* * *

دخلتْ دنيا عَلى طفلتهَا التِي كَانت تقفُ فِي الشُّرْفة ترقبُ موعدَ وُصُولها، تنظرُ للمَارّة فِي الشارعِ العريضِ ذي الخُضْرةِ العَاليةِ مِنْ كلِّ جانب، تترقبُ وُصُولَها، وكلمَا جَذبتهَا الأُمُّ صَرَخت صَرْخَةً مُدَويَةً، مُرْعبةً، فَيهَا إصرَارٌ عَلى وقفتهَا تلكَ، وإصرارهَا عَلى انتظارِ دنيا وقبلَ أنْ تدقَّ دنيا جرسَ الباب تهللُ الطفلةُ باسمهَا بطريقةٍ مُتعثرةٍ تبعثُ فيهَا جَمَالا فوقَ جمالهَا، وتفتحُ مُديرة المنزلِ البابَ، فتنهالُ دنيا عَلَى أشجَان بالقبلاتِ والأحضَان، مُسْرِعة إلى غُرفتها، مُحَملة لهَا بشتىَّ ألوانِ اللعبِ المتحركةِ الباهظةِ الثَّمَن والنادرةِ وتقولُ لهَا مُدَاعبَة:

– هيَّا يا إش إش، جميعُ هَذه اللعبِ منْ أجلكِ أنتِ.

وَأخرجت دنيا مِنَ الصندوقِ سَائِرَ الحيوَاناتِ الشائعةِ، وَبَنتْ لهَا سُورًا للحديقةِ وَأوقفَتْ كلَّ حيوَانٍ خلفَ الأشجارِ وبينهَا.

كانَـتْ إش إش تمسـكُ بالحيوَاناتِ تملؤُهَـا الفرحةُ والدهشـةُ، وتمسِكُ بهِمْ لاكتِشَـافِهم مُغتبطةً بِهَذِهِ اللعبِ الجميلةِ التى يسحرهَا عَالمُهَا.

وبينَ حيوَانـاتِ دنيا المتحَرّكَة وقردهَا الذَّكى الشَّـقى (كوكى) الصَّغِـير وَالعَرَائـس النَّائمَةِ والرَّاقصَةِ، وسـباقُ القطاراتِ والسـياراتِ وَأسَـاطيرَ دنيا الشيقَة، كبرَتْ إش إش وترعْرَعَـت، طِفلة، ذكيّة وقـدْ جَمَعت فِى خصالهَا أعْلَى الصِّفَات وأجملهَا فوقَ خصالهَا البَريئَة.

كانتْ أشجَان تخافُ كثيرًا مِنْ عقابِ أمهَا، لئلَّا تنهرَهَا هِىَ الأُخرى، وانطبَعَت وَارْتسمتْ صورةٌ غريبةٌ للأُم داخلَ الطفلةِ أشـجَان دونَ قصدٍ أوْ عَمْدٍ. كانتْ تودُّ لوْ تستطيعُ لدَافعَت عَنْ دنيا.. لوْ بِوُسعهَا أنْ تقضِى كلَّ أوقاتهَا معهَا دونَ أنْ تعكرَ صَفوهمَا أمهَا.

ورغـمَ أنَّ الأم كانـتْ لَا تقْسـو عَلى أشـجَان، إلاَّ إنَّ أشجَان نمَا داخلهَا شعورٌ غريبٌ بأنَّ أمهَا ظَالمةٌ، قَاسيَةٌ، لا تحبُّ دنيا، وأخذَ هذَا الشعورُ يتضخَّمُ بمرورِ الوقْتِ.

* * *

وكلمَا كَبرت أشجَان، كبرتْ بداخلها علاماتُ الاستفهام الّتى لمْ تفارقْهَا لحظةً واحدةً.

دنيـا..!! مَـنْ تكونُ دنيا تلكَ؟ إنهَا ليسَـت مُربية، لكنهَا أيضًا ليسَـت مِنَ الأقاربِ لجنسـيتهَا الإيطَالية!! غريب! فمَا الذِى جَمعهَا بهَا؟ لا تعرفُ. ولكنهَا ستعرفُ. أجلْ مِنَ المؤكدِ أنهَا ستعرفُ، وَلاَ محالةَ فِى ذلكَ. مَنْ هِىَ دنيا؟ ومَا هُوَ موقعهَا منْ خريطَة الأسـرَة؟ هلْ هِىَ غَريبة؟ أمْ قَريبة؟

كلُ شـىءٍ فيهَـا يقولُ إنهَـا قَريبة، بـلْ وقَريبة جدًا أيضًـا، ولا يمكَنُ أنْ تكونَ غَريبـةً عنهَا، وكلُ مَا تتذكرهُ عنهَـا مُحَاولاتهم الكَثيرة فِى إخْراجها وطردهَا مِنَ البيت لإبعادِهَـا عنهَا، دونَ جـدوى فقد كَان حبهَا لهَا وتعلقهَا بهَـا أكْبر مِنْ حقـدِ الأم وكراهيتهَا لدنيـا، فانتصرَ حبُ أشـجَان لدنيا رغمَ صغرهَا وَقلـة حيلتهَا عَلى كرَاهية الأمِ رغمَ قوتهَا وَجَبرُوتها.

وتعلّمَت الطفلةُ الصغيرةُ كيفَ تخفِى مشـاعرهَا إرضَاءً لأمهَـا. خوفًا ورهبةً منهَا وحرصًا عَلى دنيا .. لقد فتحَتْ

أشجَان عَينيْهَا فرأتهَا قبالتهَا تُرضعهَا تُهدهدُهَا، تُنظفهَا، تلاطفهَا، ترعَاهَا، تُربيهَا.

وإذا كانَ الحيوانُ لَا يخطىءُ بِفِطْرته مَا يرضِعه وَيرْعاه فأشجَان أَوْلَىٰ بهذِه الفِطْرة مِنَ الحيوانِ لذلكَ فَهِى أمهَا..

أُمها هِىَ دنيا وَهَذَا هو شعورهَا. وليدَّعُونَ ما يرغبونَ فِى ادِّعَائــهِ مِنَ الأمومَةِ ومَنْ تُلقــبَ بهذَا النداءِ، ولكنهَا أمها وحَسْب وهذا هُوَ كلُّ شعورهَا بهَا.

نهضَــت إش إش مِنْ فراشــهَا، فتحَت بــابَ غرفتهَا وَمَشت بخطُواتٍ مُتَوجسَــةٍ، يملؤهَا الخوفُ والرعبُ مِنْ حُضــورِ أُمها واكتشــافهَا الأَمْــر. ودونَ أنْ تدقَّ بابَ دنيا فتحَت بابهَا بخُفُوت.

أســرعَت فِى اتجاه فراشــهَا وبمجرَّدِ مَــا تلفتتْ دنيا وعيناهَا مَليئتَانِ بالدُّموعِ إلاَّ وَألقتْ أشَـجان بنفسِــهَا بينَ أحضانهَا، فهمسَت دنيَا بصوتٍ يقطعُهُ البكاءُ:

– أشجَان.

أمسَكت الطفلةُ وجهَ دنيا بكفيهَا الصَّغيرتْينِ وقَالت لهَا بنظرةٍ يملؤهَا الحبُّ والإخلاصُ والعَطَاء:

– كَلاَّ، أنا، إش إش، إش إش.

ثُم قربَتْ فاهَا مِنْ أذنهَا وهمستْ لهَا مُداعبةً بِبَرَاءةٍ:

– هذَا فيمَا بيننَا..!

عَرَفتِ الطفلةُ أنَّ هناكَ مَنْ يغارُ ويحقدُ فعالجَت المشكلةَ بكلِّ براءَةٍ وفطْرَةٍ.

* * *

كَبرت أشَجان وَكبر معَها تراكُم هذَا الصراع الدائِم وتلكَ الحيَاة، والغريبُ فِي هذَا الصِّرَاع، أنهُ كانَ حُبًّا لهَا، ومنْ أجلهَا بلْ وَفِي سبيلهَا أيضًا.

وظلـتْ دنيا دَائمة المُدَاعبـة والمُلاطفةِ، تبعدهَا عَنْ كلِّ الأمورِ التِي تُسئَ إليهَا، فهَىَ أُمٌّ، والأمُ تبعدُ كلَّ ما يُؤْذى أبناءهَـا عَنْهم، حَتَّى لوْ كانَ هـذاَ الأذَى مُجَرَّد هَوَاجس أوْ أفكَار أوْ تسَاؤلَات.

كانـتْ كلُ يوم تزدادُ جَمَالا وَرِقَّـة فِي عيونِ طفلتهَا، فمَا أسعدَهَا حَظًّا بِهَذَا الشّعُورِ الجَميلِ.

* * *

مصير البنت المستحيلة ..!

وَهكـذَا مـرّتْ بينَهُم الأيـامُ.. حتَّى تضخّمَـتِ الطفلةُ المُسْتحيلَة، وَسَاءت صِحّتُهَا.. وَنُزِعَتْ مِنْ بينِ أيدِيهم بقوّة القانُـون، لِتحْبسَ وَحيدة فِي زِنزانَةِ المُسْتشـفى، لتجْرَى عليهَا الفحوصُ والتجاربُ كفأرِ المعْمَل وبينمَا كانتْ أشجان تدوِّنُ ذكريَاتهَا تلكَ .. كانَ العلماءُ يترقبونَ حَالتهَا.

وأعلنَ الجميعُ أنهُ إذَا كانتْ حَالةُ تضخُّم أشجَان نتيجَة لاستنسـاخهَا فهىَ مِنَ الآثارِ الجَانبيّـة التِى تتعرّضُ لهَا، وَلاَ يعرفـونَ بَلْ لَا يمكنُ توقُّـعَ أىّ أثارٍ جَانبيةٍ أخْرى ذَلك لكونهَـا الحَالةُ البَشـريّةُ الأولى والوحيدةُ المستنسـخةحَتَى الآن.

وبدأتْ بالفعلِ أشجَان تشحبُ، ويتغيرُ لونُها، وَكأنَّ دمَهَا يتغيرُ، كلاً لمْ يكنْ شُحوبًا كهذَا الشُّحُوب الذِى نَعتادهُ فِى حَالاتَ المرضِ أو القلقِ أو الفتورِ، ولكنهُ كانَ شحوبًا مِنْ نوعٍ آخرَ، شـحوبًا غير كلِّ ذاكَ الشحُوبِ الذِى ألفناهُ، أصابَ العلماءَ مَا أصابهُمْ منْ ذُعرٍ وَهلعٍ لهذِه الحَالةِ.

وارتابَ الجميعُ في أمرهـا، وَزادت أعراضٌ غريبةٌ عَلى مظهرهَا لمْ يستطعْ أحدٌ الكشفَ عَنْ أسبابهَا. فأسبابُ التضخم غيرُ طَبيعي، وغيرُ معروفٍ، والذِى كانَ يظنُّ بَاطِلا أنه خللٌ هُرْموني.

لكنْ بقدرِ مَا كانَ هـذَا التضخمُ يعدُّ خَللًا هرمُونيًا، إلَّا أنـه لا يمكنُ، بلْ مِنَ المستحيل أنْ يُؤدى إلى هذا التَّضخم غير المسبوقِ أبدًا بأىِّ حال منَ الأحْوَال.

وَبدأت أطرافُهَا تَنحسرُ وَكأنهَا تقصُرُ، هلْ مِنَ الممكنِ أنْ تتآكلَ بعضُ الخلايَا فتؤدِّى إلى ضُمور أوْ انكماش بعضِ الأطرافِ أو الأجزاءِ فِى الجسم؟!

هَالهم مَا يروْنهُ فِى حَالتهَا، بلْ رَاعهم وَبدَأ البعضْ يخافُ فحصهَا بلْ ويتحاشَى الاقترابَ. كان مُجرد الاقترابِ منهَا أصبحَ يُريبهم ويفزعُهم.

وعُقدت المؤتمراتْ وكثرت الندواتُ والمناقَشاتُ وَنشرَتْ الأبحاثُ التِى يملؤُهَا الرعبُ والخوفُ مِنْ تلكَ الحالةِ التِى ليسَ لهَا مثيلٌ أوْ شبيهٌ عَلى وجْه الأرْض.

وجَـاء قرارٌ منْ كافةِ أنحَاء العَالم توجسًـا ممَّا يصيبهَا وممَّـا قدْ ينتقلُ منهَا للآخرينَ.. وبحثَ العلماءُ عنْ طريقةٍ مَا لعزلهَا، ولكنْ لَا تُوجد تلكَ الطريقةِ أو الوسـيلةِ الآمنةِ حتَّـى الآنَ لمثل حَالتهَا المُتفردَة، إذْ كيفَ سـيتمُ التعاملُ معهَـا فِي مَأمـنٍ مِنْ أيِّ أخطارٍ قدْ تنشـأ نَتيجَة وجودهَا عَلى قيدِ الحَياةَ.. وَعقدَ العلماءُ اجتماعًا طارئًا للبتِّ وحَسْم أمرهَـا، ونظرَ كلٌّ مِنْهُم للآخرِ فِي أثنـاءِ المدَاولةِ، لتقريرِ مصيرهَا فقالَ أحدُ العلماءِ بالانجليزية:

– لا يوجـدُ هنـاكَ أيـةُ آمَـالٍ فِي بقائهَـا عَلى قيدِ الحيَاةِ.

– كيفَ ولمَاذا؟

– لأنَّ خطـورة بقائهَا واسـتْمرارهَا عَلى قيـدِ الحياةِ بهذِه الأعرَاض، يتزايدُ كلُّ لحظةٍ عمَّا سـبقتهَا ليسَ ذلكَ فَحسْـب، وإنمَا خُطورتهَـا عَلى الآخـريـنَ.. وَلابدَّ منْ وقـفِ أيةِ تجَاربَ عليهَـا، لأنَهَا سـتكونُ عبثًا لَا طائلَ منهَا بالإضافةِ لتعرضِ المحيطينَ والباحثينَ لعللٍ لَا نعرفُ مداهَا وَلاَ عاقبتهَا.

– لكـنْ مَا بهَا مِنْ خللٍ كمَـا نَرَى فِى أعضائهَا وليسَ وباءً لنخافهَا ونخافُ بقاءهَا؟

– لا نعرفُ؟ ولنْ نسـتطيعَ معْرفةَ أىَّ شـىءٍ سوَى هذَا التدَهْـوُر الذِى تتعرضُ له بمرورِ الوقتِ، وتلكَ العِلَل التِى تُصَاحب هذَا التدَهور، لسنَا قادرينَ عَلى تحليلهَا أو الحيلُولةِ دوَنهَا، فنحنُ أعجزُ مِنْ مُوَاجهة تلكَ الحَالةِ.

– أتودُّ أنْ تقولَ أنهُ لا مفرَّ إذنْ مِنْ إعدامهَا..!

تعلثمَ البعضُ وتوتَرَ الوضْعُ فقالَ مُقرر (الجلسة وَالاجْتِماع):

– كلاَّ .. كلاَّ. فليَـس تمامَـا مثلمَا قُلـت، ولكنْ حتمًا وَلاَبدَّ أنهَا ستُواجهُ الموتَ فِى القريبِ العَاجِل.

وَرَدَّدَ آخرُ:

– قضاءٌ وَقَدَر.. فهذَا القضاءُ سـيكونُ هو الحلُّ الأمثلُ الآنَ.. وإلاَّ سـتكونُ المغامرةُ فادحَة، خاصّة وأنهَا بَشـريّة وليسَت حَيَوَانية.

كانَ العلماءُ المصريُّونَ والعربُ يعرفونَ جيدًا أنَّ مَسْـألةَ إعدامهَا سَـتُعرضُهم للمسَاءلةِ والتجريمِ والتحريمِ وَمشَاكلَ لا حَصْر لهَا وَ لَا عَدَدَ.

فكانَ لا بدَّ منْ مُنَاقشـة الأمر سـرًّا وَخفيةً، وَتقررَ أنْ تكونَ هَذِه الجلسـةُ سريّةً مخافةَ أنْ يتسرَّبَ الخبرُ فكانَ لابدَّ مِنْ كتمَانه، وجَاءت توصياتُ تلكَ الجلسَـة السـريةُ بالاسـتمرَار فِي الإعلانِ عنْ مُعَاناتها التى تتدهْورُ نتيجَة إصابتهَا بعللٍ وَأمْرَاضٍ مُسْتعصيةٍ، والتَّحْذيرُ مِنَ الاقترابِ منهَا، لأنهَا تقتربُ مِنْ سَكَرَاتِ المَوْتِ.

* * *

وعرفَ الحارسُ مَا يُضمرونهُ لأشـجان، وبدأوا بالفعلِ تنفيذ خُطّتهم. وتداوَلَت الصحفُ ووسـائلُ الإعـلام خبرَ مرضهَا الأخير غيرِ المعروف، وكثرةِ العللِ التِى حَلَّتْ بهَا وأصَابتها أخيرًا، لكنَّ الحارسَ لمْ يَسْـتطعْ الصمتَ فأخبرَ أدهمَ بحقيقـةِ الأمر، وَثمةَ مَا ينتظرهَـا مِنْ مصيرٍ حَتمى يُدَبرونهُ لهَا ولنْ يكونَ الأمرُ قضَاءً وقدرًا كمَا سيشاعُ واتفقَ عَليه.

فزعَ أدهم لمَعْرفته تلكَ الكارثةَ وهرولَ مُسرعًا إليهَا، رغمَ حجبهَا عَنهُ وعَنِ الجميع حتَّى عن المصورينَ والإعلاميينَ إلاَّ إنَّ أدهمَ تمكنَ منْ رؤيَتهَا عَنْ طريقِ الحَارس.

وَخوفًا مِنْ أنْ تحملَ أشـجانُ أمراضًـا وعللاً مَجْهولة لا يمكـن معْرفتهـا وَلَا التكهُّـنَ بهَا، وخوفًا منَ الفشـلِ فِي مواجهـةِ تلكَ الحالةِ ومعرفةِ مَا قدْ ينتقلُ للآخرينَ منْ عللٍ غير مَعْروفةٍ أيضًا كمَا حدثَ فِي حَالةِ النعجَة دُوللِّى «Dolly» وَتعنِي دمْيَـة، التِى كانَ مصيرهَا الإعْدَام فكانَ قرارُ العلماءِ التخلصِ منهَا.

لِكنْ بِسُرعةِ البرقِ نَقَله الحارسُ وَبلّغةُ لأدهمَ.

* * *

وَتمَّ القَبْـض عَلى الأُم لمحَاكمتهَا بتهمَة فَتْح القبرِ ونزْع عينَاتٍ مِنْ جُثةٍ مَيتةٍ. وتسـهيل إجرَاء التجَارب العلميّةِ عَلى إنْسَانَة مُجَرَّم قانونًا وَمُحَرَّم شرْعًا.

أمَّـا الأبُ فرغمَ أنه كانَ مُعاونـا، إلَّا إنَّ دورَه الثانوى جَعلـه مُتفرجًا ومجردَ شـاهدٍ عَلى الأحـداثِ ليسَ أكثرَ ولاَ أقلَّ مِنْ ذلكَ.

وفوجئتْ دنيا بهَذِهِ الحقيقةِ الَّتِي تعرفهَا لأولِ مرةٍ.

وجـاءَت مُحَاكمة الأُمّ والبحثِ عَنْ حَارس القبور الذى فتحَ القبر وسَاعدهم فِي إخراج جُثة الطفلةِ الميّتَة.

وَثبتَ مِنَ الخريطةِ الوِرَاثية أنَّ الطفلةَ المُسْتحيلةَ والتِى تُدعــى أشــجَان كمَا أطلقُــوا عليهَا حَوّاءَ (Eva)، ليسَــتَ مُستنسَــخَة مِــنْ الأم المسَــجّلة بشــهادةِ ميلادهَا .. لأنَّ الخريطَة الوِرَاثيةَ للطَفلةِ المُسْتَحيلةِ ليسَت مُطابقة لخريطَةِ الأم، وبناءً عليهِ تســقطُ كلُ حقوقهَا كأم اسْتنسخَتْ منهَا هذِهَ الطِّفلة، وتمتْ مُحَاكمة الأم بتهمَةِ جريمَةِ المشاركَة فِى مُهمة إجرَاء التجاربِ العِلمية البشــريّة وَتَيْسيرهَا والعبَثِ بجثةِ الطفلةِ الميتةِ.

أمّــا دنيا فكانَ الحكْم لهَــا بأمُومةِ الطفلةِ المســتحيلةِ أو المتوحِّشةِ حيثُ إنهَا حملتهَا وأرْضعتهَا.

وراحَ المحامى يُدَافع عَنْ أمومةِ دنيا للطفلةِ المسْــتحيلَةِ حتىَّ انتهىَ الأمرُ بأحقيتهَا فِى أمُومةِ الطِّفلة.

كانــتْ دنيا فِى غِنًــى عَنْ هَذاَ الإعــلانِ. فطالمَا بقيتْ كَامِنَةً، بعيدةً عنِ الأنظَار، إلا إنهَا كانتْ تنعمُ بشــعورهَا وبنوتهَــا.. أما الانَ وَقدْ أجْهضُــوا فرحتَها بإعلانِ حَقيقَة استنسَاخ طفلَتهَا.. لَمْ يكنْ لديهَا مَا يدعُو للفرح أو السعادةِ بإعــلانِ أمومتهَا المُهــددة.. فقدْ أجهــضَ مَرَضُ إش إش بالتضخُّم فرحتهَا بهــذَا الإعْلان.واختفَى حارسُ المقبرة،

كمـا اختفَى العالمُ أنتينورى عَـنْ إيطاليَا، أمَّا الأبُ فكانَ دورُه فِـى القضيـةِ ثانويًّا تمامًا مثـلَ دورِه فِى الحياةِ فى البيتِ، فهوَ لمْ يزدْ عنْ كونهِ منفذًا لرغَباتِ زَوْجته.

كانتِ المفَاجأةُ مُرْعبةً بالنسبةِ لدنيا، مَعْرفتها باستنسَاخِ طفلتهَـا، وَرَاحت دنيـا تُصَلِّى مِنْ أجلِ ابنتهَا، وتشـفقُ عَليهَا مِنْ معرفتهَا تلكَ الحقيقة.

وَبُهـتَ أدهم وهُوَ يقرأُ كلَّ سـطرٍ مِنْ تجربةِ أشـجَان العِلْمية واستنسَـاخهَا، وتذكَّرَ كَمْ كانتْ تنقلُ لهُ شعورهَا بـأنَّ دنيا هِىَ أمهَا الحَبيبة وَلكنْ ضحية مُجَرد أُمٍّ رسْمِية وحسْب، فهِىَ أخذتْ دورَ البطولةِ فِى حياتهَا لتعلبَ دورَ الأمِ ولكنهَا لمْ تتقنهُ بَعْد.

* * *

وكَمْ كَانت قاسـيةً تلـكَ الأحداثِ عَلـى كُلٍّ مِنْ دنيا وَأدهَم.. أمَّا أشـجَان فقدْ عَرفتْ كمْ أودَت بهَا أنانيةُ تلكَ الأم.. التِى تحَّدت القدرَ لتشبعَ غريزةَ الأمومةِ بداخلهَا.. فهَا هِى تحصدُ الآنَ مَا غَرسـته. لمْ تستطِعْ يومًا أنْ تكونَ ابنَـةً لهَا، لَمْ تحبهَا بفطرتهَا، بَلْ كانتْ تروِّضُ نفسَـها عَلى حبهَا قدرَ اسْتطاعتهَا.

هروب البنت المستحيلة ..!

رَاحتِ أشــجان تكتبُ كلَّ شــيءٍ بلا خوف أَوْ خجلٍ وبلَا حذفٍ أَوْ إختصَارٍ.

وتسجلُ تجربةَ حياتِهَا وَشكوكهَا وَعذابهَا حَتى تذَكَّرتْ أَدْهم، وراحت تستعيدُ أَحْلى لحظَات حياتِهَا معهُ وشَجرةَ مَأواهما الوَارفة الظلالِ، لمْ يفارقهَا أدهم منذُ أحبهَا، كانَ يتبعهَا كظلهَا أينمَا حلّت وحيثمَا كَانَت.

وبعــدَ أنْ دَوَّنت كلَّ مشــاعرهَا وسَــجلت كلَّ آلامهَا، بدأتْ تكتبُ رسالتهَا الموجَّهةَ إلى أدهم.

فلم تكتفِ أشجَان بتسْجيلِ مَا حدثَ فقطْ، بلْ شَرعت تتخيَّلُ مَا ســوفَ يَحْدث بعدَ رحيلهَا أيضًا، كماَ تتوقعهُ وتتمنَّــاهُ، فَرَاحت تتخيلُ حياةَ أدهــم بعدَ رحيلهَا، وَإذا كانَــتِ الحياةُ قدْ حَرَمتهَا تحقيقَ لقائهمَا، فلابدَّ أنْ يحيَا أدهم ويكُون مثلمَا تمنَّتْ هِيَ وكأنها مَعهُ لَا تفارقهُ فَلْيحقق حُلمهمَا رغمَ العواقبِ والظرُوف.

وَلنْ يكونَ وَحده وَشَرعت تتخيلّهُ وهي تَكْتُبُ:

وبعدَ أنْ دُفنت أشـجَان وَوَاروها الـتُّرابَ، وعادَ أدهم يحملُ وحْدهُ روحهَا فى جَسَـده. لمْ يشـعرْ بِألـم أو حزْنٍ مَا، كمَا شـعرَ الآخـرونَ لفراقهَا، لأنهَـا لمْ تُفارِقهُ بَعْد، وَإذا كانَ حَقًّا قدْ رحلَ جَسـدُهَا الآنَ وَسُوِّى فِى التراب، فجسَـده هو مـازالَ حيًّا. فـوقَ التراب، ليحمـلَ وحْده رُوحيْن.. روحهَـا وروحَه معًا.. وفِـى آنٍ واحدٍ، ليحقِّقَ حُلـمَ حَبيبتهِ.. وَرَاحت تَتَخيله. وَظَل أدهم ناجحًا، طَلق البيَـان، عَارِفًا بُمختلف الفنـونِ والآداب.. لتُقَابله أجملُ أشـجَان مرةً أُخْرى، وَترافقه مِشْوَارَ حياتهِ علّهَا تحققُ لهُ مَـا عَجزتْ عَنْ تَحْقيقه حبيبتـهُ الرَّاحلة، وينجبُ أدهم أشجَان الصَّغيرة.

وَألقـتْ بالقلم برهةً مِنَ الوقتِ، وَسَـالت دموعُهَا وَهى تتمنىَّ تجنُّب مَا جنتهُ، وتعاودُ تمسكُ بالقلم لتكتبَ:

لكنهُ سـيُنْجبهَا إنجابًا حقيقيًا هذه المرّة، دونَ الحاجةِ لأنابيب أو بُويضات أو أرحَام أو مُرْضِعَات.

سـينجبُ أشـجَان الصغيرةَ دونَ اللجوءِ لعلماءَ وأطباءَ ومعاملَ وبحوثٍ والنبشِ فِى القبورِ، دونَ تحدٍ للقدرِ..!

سينجبُ أشجانَ الصَّغيرةَ مِنْ زوجتهِ وحسْب، لتكونَ أشجَان طَبيعيَّة لَا عِمْلاقة وَلَا ضَخمة. لنْ يكونَ هناكَ ضمورٌ أو تآكلٌ أوْ فحوصٌ أوْ زِنْزَانة. ستكونُ أشجَان صَغيرةً، رَقيقةً، لتحلِّقَ كالفراشِ ليجرِىَ خلفهَا أدهم العجوزُ وسيلحقُ بهَا، كعَادتهِ معَهَا ورغم كِبَره وَعُمره، سيلحقُ بهَا لا مَحَالة.

وأجهشَتْ بالبكاءِ، ثم تَوَالت كلماتهَا عَلى الورقِ. أمَّا أنَا أشجَان المُستنسخةُ فدعْنِى لألحقَ بالآخرةِ، كَمَا ظَلَلتُ عَلى عهْدِى باقٍ فعاهدنِى عَلى تحقيقِ مَا تمنيتهُ فكنْ سعيدًا قدرَ اسْتطاعتكَ يَا حَبيبى، حتَّى أستريحَ، وَتَأكد أننِى لنْ أَرحلَ عنكَ أبدًا، وإذَا كانَ جسدِى قدْ رحَلَ عنكَ فروحِى لنْ ترحلَ عنكَ بعْد.. لأنهَا رَاحلةٌ إليكَ وحدكَ يَا حَبيبى.. سأرحلُ إليكَ لأسترْخى فِى قلبكَ الوثيرِ.

وحين أنامَ.. تصحُو.. لينبضَ قلبكَ بِى..

وأدقَ بهِ فؤادكَ ذاكَ الصَّغِير.. لأسرِىَ فِى دَمكَ.. أُجدِّفُ، أَسبحُ أبحرُ، أَرسُو، حيثُ شئتُ.. وكيفمَا ملتُ أميلُ.

كانتْ رسَـالة طويلةٌ. لمْ تكنْ رسَـالةَ حُـبٍّ، أَوْ نداءً أَوْ حتىَّ شـكْوى، لكنهَا كانتْ رِسَـالة حيَاة، حياةٌ كُتبَ عليهَا العدمُ، حَيَاة لمْ ترَ فيهَا سِـوى المعَاناةِ، ورغمَ إنهَا كانتْ رسَالةَ لا تحملُ سَوى الدعوةِ للحياةِ، إلاَّ إنهَا كانتْ رسَـالةَ وَدَاعٍ. وددتُّ لـوْ أراكَ الآنَ.. أوْ يترفـقُ بـى الله فيسـمَح لِى بِرؤيَاك ولوْ لمرةٍ واحدةٍ قبلَ الموتِ.. ولكنْ علىَّ الآنَ أنْ أودعَـكَ.. فمِـنْ رحمةِ الخالقِ بنَا ألا يعلمَ أىُّ مِنَّا مَتَى تحينُ السَّاعةَ. فجأةً تَرَاه أمامهَا..

أدهم ..!

تدفنُ وجهـهَا بينَ يديهَا وتنتحبُ.

يُساعدُهَا أدهم عَلى الهدُوءِ ويلملمُ أوراقهَا المبَعْثرةَ.

* * *

بذلَ أدهم قُصَارى جُهده مُحَاولًا تهريبهَا مِنَ المستشفَى ولكنْ كيفَ؟ وَهِى بكلِّ هذاَ الحجْم الهائل الضَّخم؟

وَقبلَ الحارسُ مُسَـاعدته مُقَابـلَ مَبْلغ كبيرٍ منَ المال، لمْ يرَ أدهم أَمَامهُ مَنْ يُسَـاعدهُ فِى ذلكَ الأَمرِ، سـوىَ دنيا الَّتِى ظلّت تمنحُ وتُعطى كلَّ مَا بِوُسعهَا لأشجَان، فَهِىَ أمٌّ

والأمومَـةُ عَطاءُ.. وَعَطاءُ الأمومَة غَريزَة لابُدَّ مِنْ إشـباعهَا وَإلاَّ دَمَّرَتِ العالمَ مثلمَا فَعلت ضَحِيَّة.

نجحَ أدهم فِي إيجَادِ وسيلةٍ لهروبهَا، وخرجَ أدهم تحمِله أشـجان عَلى كتفهَا، وقدْ بَدَا لهَـا وكأنه طفلهَا الصَّغير، ولكنهُ كانَ كبيرًا شـامخًا فظلَّ يُرشـدهَا إلىَ الطريق الَّذى حددهُ لهرُوبهَا.. وسَـارَا حتَّى جلسَـا سويًا وسطَ الأشجَار والزهُـور، ظنًّا أنهمَا بعيدًا عنِ العيونِ، هدأتْ مُتكئة عَلى جذعِ شَجرةٍ وَارفة الظلاَل، سَاكنة هِىَ، مُطْمئنة.

* * *

كـمْ مضَـى عليهِ مِنَ الوقـتِ هكذاَ وهو يقـرأُ، وهِىَ مُسـتغرَقة فِى سُـباتهَا العَميق..؟ سَـاعَاتٍ.. وَسَاعَات طَويلةٍ مرَّتْ وَهِىَ فِى نوم عميقٍ، وكأنهَا لمْ تنمْ منذُ عهدٍ طويلٍ. ومَا إن أشرَقت الشَمسُ حتَّى طَوى أدهمُ صفحَاتِ أوراقهَا. وبمجـردِ أنْ رَاح يمرُّ بأصَابعة عَلى شـعرِهَا، حَتى فتحتْ عينيهَا لتبصرَهُ بجانبهَا، فابتسـمَت وقد نَسـيتْ كلَّ شىءٍ إلاَّ وجُوده معهَا. كَلَّا لمْ يشْعُر للحظةٍ واحدةٍ بالخوفِ منهَا رغمَ التحذيراتِ التِى كتبتْ عنهَا

لَقَـد بدَت أمامهُ كحُورية منْ حُورياتِ الجنةِ هكذَا كانَ يراهَا أدهم.

ورغـمَ أنَّ الصَّخبَ والـدَّوىَّ كانَا يرتفَعان فِى كلِّ مكانٍ حيثُ انتشـر بسـرعةِ البرقِ خبرُ هروبِ البنتِ المتوحشةِ والبنـتِ تحملُ أسـرارًا مجْهولـة غَريبـة، وأمرَاضًا غَيْر معروفَةٍ بَلْ وَغير مسبوقةٍ، عَدْوى مجهولَة الهويَّة للآخرينَ إذَا انتقلتْ إليْهمْ..

فلا يجبُ الاقترابَ منهَا أوِ التسـتُّرِ علَيهَا وإخفائهَا بأىِّ حالٍ منَ الأحوَال.

وَأُعلنـتْ حالةٌ منَ الطَّوَارئ غير المسـبوقةِ فِى سـائرِ الطرقـاتِ، وأُعْلِنَ حظْرُ التجوالِ فِى المدينةِ وعدم الخروجِ مِنَ المنازلِ لحينَ العثـورِ عليهَا.. وَهَلعت الجماهيرُ خوفًا من البنتِ المتوحّشـة (هكذَا أطلقُوا عليهَا) وخرجَت قواتُ الشُّرطةِ يَمينًا وشمَالا بحثًا عَنِ البنتِ المتوحشةِ.

كلاَّ..!

لمْ يشـعرًا بهوْلِ وفـزَعِ وهَرْوَلةِ الجماهـيرِ الَّتى كانتْ تصخبُ مَنْ حولهمَا. وكأن الحبَّ الذِى بينهمَا أسـكرهمَا

فلمْ يعيَا بأىِّ شىءٍ حولهمَا سِوَى وجودهمَا سويًّا .

فيقولُ لهَا :

– كـمْ كانتْ الأيـامُ سَـخِيَّةً ،فِى عَطَائهَـا لِى بالآلامِ يَا أشجَان.

وَفَجْأةً تمَّ العثورُ عليهمَا.

وبمجـردِ أنْ اعتدلتْ فِى جِلْسـتهَا حَتَّى أشـارَ بعضُ رجالِ الشرطةِ تجاههَا.

* * *

مناجاة الموت ..!

كانتْ لضخامتهَا تسيرُ.. ومَا هِيَ بسائرةٍ، لكنهَا مُحطِّمةً لكلِّ مَا تمشِـى عَليه.. فِهيَ ثَقيلـةُ الوزنِ.. كبيرةُ الحجمِ وسارَاً سويًا بعيدًا عنِ الناسِ...

وبمجـردِ أن سمعَ النـاسُ بَيَان هُروبهـا هرولُوا بفزعٍ يجـرونَ يمينًا وشمالاً، بحثًا عنْ مَـلاذٍ يقيهمْ منهَا، كانُوا يفرونَ منهَا قبـلَ العثورِ علَيها فرارهُم مِنَ الموتِ، وَكأنهُم خرجوُا مِنَ الأَجْداثِ فراحُوا مِنْ كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ.

* * *

وكانَ صـوتُ الضجيـجِ والفـزعِ يملأُ المدينـةَ فتوقفتْ أشـجَان عنِ السـيرِ، وهِيَ تَرى النَاسَ وكيفَ يَخْشـونهَا هالهَا المنظرُ..

وَلم يُفْزِع الناسُ قدرَ فزعهَا منْ رؤيةِ فَزَعهم منهَا.

وظهرَت أشجَان بضَخامتهَا المفزعَةِ، لتدمرَ كلَّ ما يقعُ تحتَ قدميهَا دونَ قصدٍ أوْ نيّةٍ وهَى لَا تعْلم.

وَهَرْولَ الناسُ مِنْ بيوتهمْ كالفراشِ المبثوثِ بحْثًا عَنْ ملاذٍ يَقيهم شرَّ ذلك الكائنِ المتوحشِ.. الحاملِ لأمراضٍ وأسرارٍ مُدَمِّرةٍ.

لَمْ يتحقَّق أحدٌ مِنْ رُؤيةِ ملامحِهَا لضخامتِهَا، فشعرهَا الكثيفُ الطويلُ كانَ يتدلَّى فوقَ ظهرِهَا فيغطِّى أسفلَ ردفيْهَا. فبدَتْ لهُم كجنيةٍ مُخيفة مُدمِّرَة مِنْ أبطالِ الأساطيرِ المُرْعبَة.

فلَمْ يتبعْ أثرَهَا أحدٌ مِنَ الجماهيرِ خوفًا منهَا. بلْ فرُّوا منهَا فرَارهم منَ الموتِ لا تعرفُ أشجَان لماذَا وإلَى أينَ هرَّبهَا أدهم؟ ولماذَا أذعَنتْ لرغبتِهِ تلكَ هكَذَا فجْأةً؟ وهىَ تعلمُ جيدًا صُعوبةَ. بَلْ واستحالةَ الحياةِ معهَا.

قالتْ له باضطرَابٍ وهِىَ ترتعِد:

– انظرْ يَا أدهم.. كيفَ يفزَعُ الناسُ منِّى الآنَ؟ كيفَ تتهدَّمُ الأشياءُ تحتَ قدمِى؟ لماذَا أذعَنتُ لكَ وَجئتُ معكَ وَطاوَعتكَ؟ لماذَا؟

وَراحَت دموعُها تسيلُ فوقَ خدَّيهَا.

وَأردفتْ تقولُ: كانَ أهونُ علىَّ أنْ أموتَ على أنْ أرى الفزَعَ والرعْبَ يملآنِ عُيونَ النَّاسِ..؟ ليتنِى أموتُ الآنَ، كىْ أريحَكَ وأريحَهم وَأستَريحَ؟! وَرَاحتْ تنتحِبُ.

ولكنهَا كانتْ تجدُ رغبةً قويةً فِى طَاعتِهِ..

رغمَ إحساسِهَا بقربِ النهايَةِ، إلَّا إنهَا آثرتْ الموتَ معهُ علىَ موتهَا فِى الأسرِ وحدهَا فِى زنزانةِ المُستشفَى.

وَعادَ أدهمُ جَبَّارًا.. يهزُّ صُرَاعُه الكونَ منْ أجلِ حَبيبته.

وَقدْ حَاولتِ القواتُ عدمَ قتلهَا ورميهَا بالرصَاص، برغم إنهَا فِي أثناءِ سيْرهَا، دَمَّرتْ خطواتُهَا العريضَةُ الواسعةُ الثقيلةُ العديدَ منَ المتلكات، وهلعَتِ الجمَاهيرُ وهَرْولتْ بحْثًا عَنْ مكانٍ تلوذُ بهِ خوفًا مِنَ البنتِ المتوحِّشَة.

* * *

كانتْ تراهُم بعينِ الأَسَى..

الجميعُ يخافونهَا..

ورجالُ الشرطةِ يهددونهَا بإطلاقِ الرصَاص، والكلُّ لا يرحمهَا إلاَّ قلبٌ واحدٌ نفضتهُ بقوةٍ ليبتعدَ عنهَا حتَّى لاَ يُصيبَه أذًى منْ طلقاتِ الرصَاص.

وَتوالت صَرَخاتُهَا برجَاء أدهم بالابتعادِ عنهَا حتَّى لاَ يأسرونهَا عَلى قَيْد الحيَاة..

لكنَّ أدهمَ تشبثَ بهَا مُتعلقًا بآخرِ أملٍ فِي البقاءِ معهَا، ولمْ يطلِ الصراعُ بينهمَا وبينَ رجالِ الشرطةِ الذينَ قررُوا إطلاقَ الرصَاص عليهَا..!

مَاذا فعلَ بهَا المرضُ؟ كانُوا يُوَلّونَ فزعًا ورعبًا منهَا..

صرخَ أدهمُ وهُوَ يُحَاولُ دونَ تحقيق ذلكَ صَارخًا:

مُسْتحِيل..

لا تقتلوهَا..

وَإن ظفرتمْ بقتلهَا فاقتلُونِى قبلهَا.

وأطلق عليهَا الرصـاصُ الواحِدَةَ تلْوَ الأُخرى، وَرَاحتْ كلُّ رصَاصةٍ تُدمِى قلبهُ قبلَ قلبهَا.

– أدهَم لقد تمنيتُ الموتَ وأنتَ بجَانبِى حتىَّ لَا أُعانِى منَ الوحدةِ وَالخوفِ مرةً أخرى.. أودُّ أنْ أرتاحَ إلى الأبدِ.. وَهَـا أنا أحقـقُ أحلامِى.. أرجـوكَ يَا أدهـم لا تبكِ مِنْ أجْلِى.. لقدْ تعاهدنَا أن يسـعدَ كلانَـا الآخرَ فلاَ تعذبنِى وتتعذَّبُ برحِيلِى.

– أنْـتِ ترحلينَ إلىَّ يَـا حَبيبَتِى، ترحلـينَ إلىَ قلبِى فلتهدَئِى وَتسْكُنِى.

– أرجوكَ يا أدهمْ لَا ت.. بْ.. كِ...

وَهَدأتْ وَغَابتْ عَنِ الوعْى.

مَدَّ يدُه إلى يدهَا العريضَة الضَّخْمة الضَّعِيفة الوَاهِنَة.. وَضعهَا عَلى صَدْرِه.

كأنمَا يريدُ أنْ يمدَّ حياتهَا بتلكَ البقيةِ الباقيةِ فِى قلبهِ مِنَ الحياةِ لتعيشَ معهُ. لاَ يصَدِّقُ أنهَا رَحلت..

يلتفتُ يميناً وشمالاً.. نظراتٌ مُضطربةٌ مَذْعورةٌ.. يصرخُ.. كَلاَّ..

لنْ تموتِى.. وفجأةً سَكنت وَتماسَكَ. سَاكنة هِىَ وليسَتْ نَائمة.. ليسَ عَلى وجهِهَا أثرٌ مِنْ آثارِ الآلامِ الَّتِى يقاسيهَا المَرْضى.. يحسبهَا الرائِى نائمةً ومَا هِىَ بنائمةٍ..

لقد مَاتَ كلُّ شىءٍ دونهَا ولمْ يبقَ سِوَاهَا..

وَجُنَّ قائلاً:

إنهَا ستَصْحُو الآنَ. صَدِّقونى..

إنهَا نائمة.. فلا تزعجُوهَا.. لاَ تقلقوهَا..

دعوهَا وشأنهَا.. بلْ دعونَا وشأننَا..

وراحَ يصرخُ بلا صوتٍ ويبكى بلَا دموعٍ..

* * *

كَانَ أدهم قَدْ قاسَى كثيرًا فِى تلكَ الأيام الأخيرة الَّتِى قضتهَا أشجَان خاصَّةً الساعَات الأخيرَة.. ولكنْ مَا قاسَاهُ فِى تلكَ الليلَةِ، كانَ يفُوقَ طاقتهُ واحتمَالهُ كإنسَان.. فقدْ كانَ الأثرُ الذِى تركتهُ أشجَان فِى نفسهِ كفيلًا بأنْ يضلهُ عنِ سبيلِ التفكيرِ السليم.. كانَ حبُّهُ لهَا بمثابةِ جميعِ الأدلةِ التِى تدحضُ أىَّ اعتقَادٍ برحيلهَا وفنائهَا.

وحملوهَا رغمًا عنهُ.. نزعوهَا منهُ..

لم يحملْ نعشَها عددٌ مِنَ الرجالِ بلْ حملتهُ سيارةٌ ضخمةٌ. ولَمْ يفارقْهَا أدهم لحظةً واحدةً..

كانَ نعشًا فريدًا.. لمْ يكنْ له مثيلٌ مِنْ قَبلُ.. كانَ صامتًا.. بلْ واجمًا.. مَذهولا..

يسيرُ وراءهُمْ حتَّى حملهَا معَهُم فوقَ كتفهِ.

* * *

وَفِى حى الموتَى الذِى يختلفُ كلَّ الاختلافِ عَنِ الأحياءِ العاديةِ، إذ ليسَ هناكَ مَسَالِكُ وشَوَارِع كمدنِ الأحياءِ حيثُ لا يسكنُ هنَا سِوَى الموتَى.

ورغم أنَّ النهارَ كانَ يملأُ الأرْجاء، والشمسُ الَّتِى كانتْ تتوهَّجُ.. إلاَّ أنَّهُ شعرَ بأنَّ الظلامَ كانَ شديدَ الحِلْكَةِ.

وجاءَ خَدَمُ المقابرِ يتسابقونَ عَلى فتحِ المقبرةِ لدفْنِ أشجَانٍ فِى نفسِ قبْرِ تَوْأَمَتِهَا وَمدفنهَا..

كانَ قبرًا مميزًا وثيرًا غيرَ كلِّ المدافنِ التِى ألفناهَا..

فلَمْ يكنْ هناكَ أسهل مِنَ العثورِ عليهِ بينَ مدافنِ وَمقابرِ

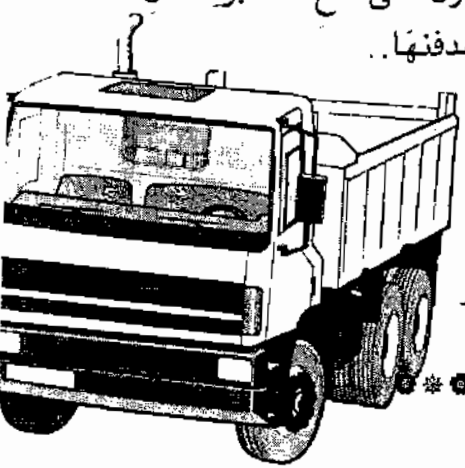

الآخرينَ.. إذْ إنَّهُ ليسَ كسائرِ المَقابر.. فليسَ هناكَ أيسرُ ولا أسهلُ منَ العثورِ عَلى قبرِ الطفلةِ الصَّغيرةِ الوَثير.. لأنهُ مزيَّنٌ بأزهارٍ وَخُضْرة، مُختلفٌ عَنْ سائرِ القبور، فهناكَ بُستانى القبورِ الذى كُلِّفَ بعنايةِ هذا القبرِ منذُ دُفِنَ الطفلة به مُقابل مبْلَغٍ مِنَ المالِ يتقاضَاه شَهْرِيًّا، كانَ القبرُ الوحيدُ الذى يُظَنُّ أنَّهُ بمثابةِ البُسْتانِ.

وفُتحَت المقبرةُ..

للمرَّة الثَّالثة..

لدفنهَا مرةً أُخْرى..

مَا هذا الإزعَاجِ الذى يُسببونَهُ للموتَى وللطفلةِ الصَّغيرةِ البريئةِ.. الَّتى لمْ تهدأْ بعدُ فى رقدتهَا.. وفى مقبرتهَا تلكَ..

فأباحُوا جثتهَا..

ثم أعادوهَا..

ليلْقُوا بهَا مرةً أُخرَى..

وللمرةِ الثالثةِ يعيدوهَا.. كَبيرةً عِمْلاقةً.

حفرَ أدهمُ قبرهَا بيديْهِ.. بلاَ خوفٍ أو وَجَل..

غريبٌ هو أمرُه.. ظَلّ – صَامتًا..!

وكأنَّ النوايَا الَّتِى كتمهَــا بِدَاخله جَعَلته بهذَا الصَّمتِ والوجُوم وليسَ الاستســلامُ، لأنــهُ قطعًا مُنفذهَا دونَ تردُّدٍ أوْ خوفٍ أو وجَلٍ.. وبعدَ أنْ نزلَ خَدَمُ المدافنِ وَمَعهم أدهم ليرقدوهَا فِى الغرفةِ المظلمَة مِنْ جديدٍ..

صَعــدَ خَدَمَةُ المدافــنِ وحراسُ القبــورِ إلىَ أعلىَ المقبرةِ وانتظــرُوا.. وانتظرُ مَعَهم أهلُ أدهم، وأهلُ أشــجَان..!! فَمَا بَاله لمْ يصْعَدْ بَعْد.

نادُوا عليهِ..

أدهم.. أدهم.. أدهم..

فلمْ يجبْ..

وَعلت أصوَاتُهم، بلْ صرَاخ بعضهنّ:

أدهم.. اصعَدْ يا أدهم..

كلاَّ لمْ يسمعْهُم بَعْد.. لقدْ رقدَ أدهم بجوارهَا.

وَأغمضَ عينيْهِ.. مثلهَا تمامًا..

وَهَدَأ..!! وصرخَ الجميعُ أدهم..

وتوالتْ صرخَاتهم كلًا لمْ يُجِب..

لمْ ينطقْ.. لمْ يتَحرَّكْ..

وكيفَ يُجِيبهم وهُوَ لمْ يسْمعْهم قَطْ..؟ كانَ يَسْمعُ صَوْتَ أشجَان فقط وَهِيَ تُنَاديه:

– إنـــيَّ خَائفة يَا أدهـــم.. لا تَدعْنِي فِـــي تلكَ الظلمةِ وحْدِي..

وَرَاحَ يُحدثهَا: لـــنْ أترككِ يَا حَبِيبَتِي.. فأنا معَكِ أينمَا كنـــتِ.. فلتنامِي ولتهدئِي عَلَّنَا نَسْـــتريح ســـويًّا مِنْ هَذِه الدنيَا وراحَ يودعُ الدنيَا وَيغنِّي أنشودةَ الوداعِ:

سَـــلَامٌ عَلَـى الدنيَـا سَـلَامَ مُـوَدِّعٍ
رَأَى فـِي ظَلَامِ القَبْرِ أُنسًا وَمَغْنَمًـا
أَضَرَّتْ بـِهِ الأُولَى فهَـامَ بِأُخْتِهَـا
فإِنْ سَاءَتِ الأُخْرَى فوَيْلَاهُ مِنْهُمَا(٠)

كانَ يحدثهَا بصوتٍ غَيْرِ مَسْموع.. لا جاهرًا وَلَا خافتًا.. وانتظرَ..

انتظرَ بفارغِ الصبرِ أَنْ تفتحَ عينيهَا..

لتصحُو مِنْ نومهَا كمَا فَعَلت منذُ ساعاتٍ..

لكنهَا لمْ تفعلْ.

---

(٠) الشاعر حافظ إبراهيم

وفجاةً..!

وَجَدَهـمْ ينتزِعُونَـهُ إنتزاعًا مِنْ جانبهَا.. أمسـكَ بهَا مُتعلِّقًا.. وتوالتْ صَرَخاتُهُ كطفلٍ يتشبثُ بأمهِ.. لكنهُ فشلَ فِي البقاءِ معهَا. وتوالتْ صَرَخاته عَنيفة قَاسِيةً ترجُّ المقابرَ فتخـالُ الموتَى، ينبعثُونَ مِـنْ أجْدَاثِهم، لفزعِهم، وكأنهَا فَزْعَةُ البعْثِ. وأقصُوه عنهَا ورَاحُوا يغلقونَ المقبرةَ دونه.

ومنذُ هذَا الحِين، راحَ أدهم يَهْذِى بهَا فِى كلِّ مكانٍ..

أتظنونَ أنهَا مَيتة؟

كلَّا.. إنهَا نَائِمَة.. فقطْ نَائِمَة.. وليسَت مَيِّتة..

وَجُنَّ قائلًا:

كلَّا.. إنهَا خُلِقت الساعةُ فقطْ. وَرُدَّت إِلَىَّ..

لَقَدْ ماتَ بموتهَا كلُّ حىٍّ فِى هذَا الوجودِ..

وراحَ يضمُّ رِسَـالتهَا التِى لمْ تفارقهُ لَحظةً بينَ ضُلُوعه، فهِىَ كلُ مَا تبقَّى لهُ منهَا..

ينتظرُ الموتَ ويغنىِّ بهَا مِنْ كربهِ فينادِى الموتَ قائلًا:

يـامـوتُ قـدْ مزقْـتَ صَـدْرى

وقصمْـتَ بـالأرزَاءِ ظَهْـرى

وَفَجعتِنـــــى فيمَـــــنْ أحـــــبُّ
وَمَـــــنْ إليـــــهِ أبثُّ ســـــرِّى
وهدَمـــتَ صرْحًـا، لَا ألـوذُ بغيـــرِهِ
وَهتكْـــــــتَ سِتْـــــــرِى
وَفقدتَ كفًـا، فـــى الحيَـــــاةِ
يَصُـــــدُّ عَنـــــىَّ كُـــلَّ شَـــــر
وتركتنـــى فِـــى الكائنَـاتِ أَئِـــنُّ
مُنفـــــــــردًا بإصـــــــرى،
وأجـــوبُ صحـــــراءَ الحيَـــــاةِ
أقـــولُ: أيـــنَ تـــراهُ قبـــرى؟
مَـاذا تـودُّ مِنَ المعذبِ فِى الوجـــودِ
بِغَيْـــــــــــــــــــــــرِ وِزْر؟
خُذْنِى فَما أشقَى الَّذِى يَقضَى الحياةَ
بمثْـــــــــلِ أمْـــــــــرِى(١)

---

(١) أبو القاسم الشابى